مهرجان القراءة للجميع



مكتبة الأسرة

رشيد الذوادي

رواد الإصلاح

الأعمال الفكرية

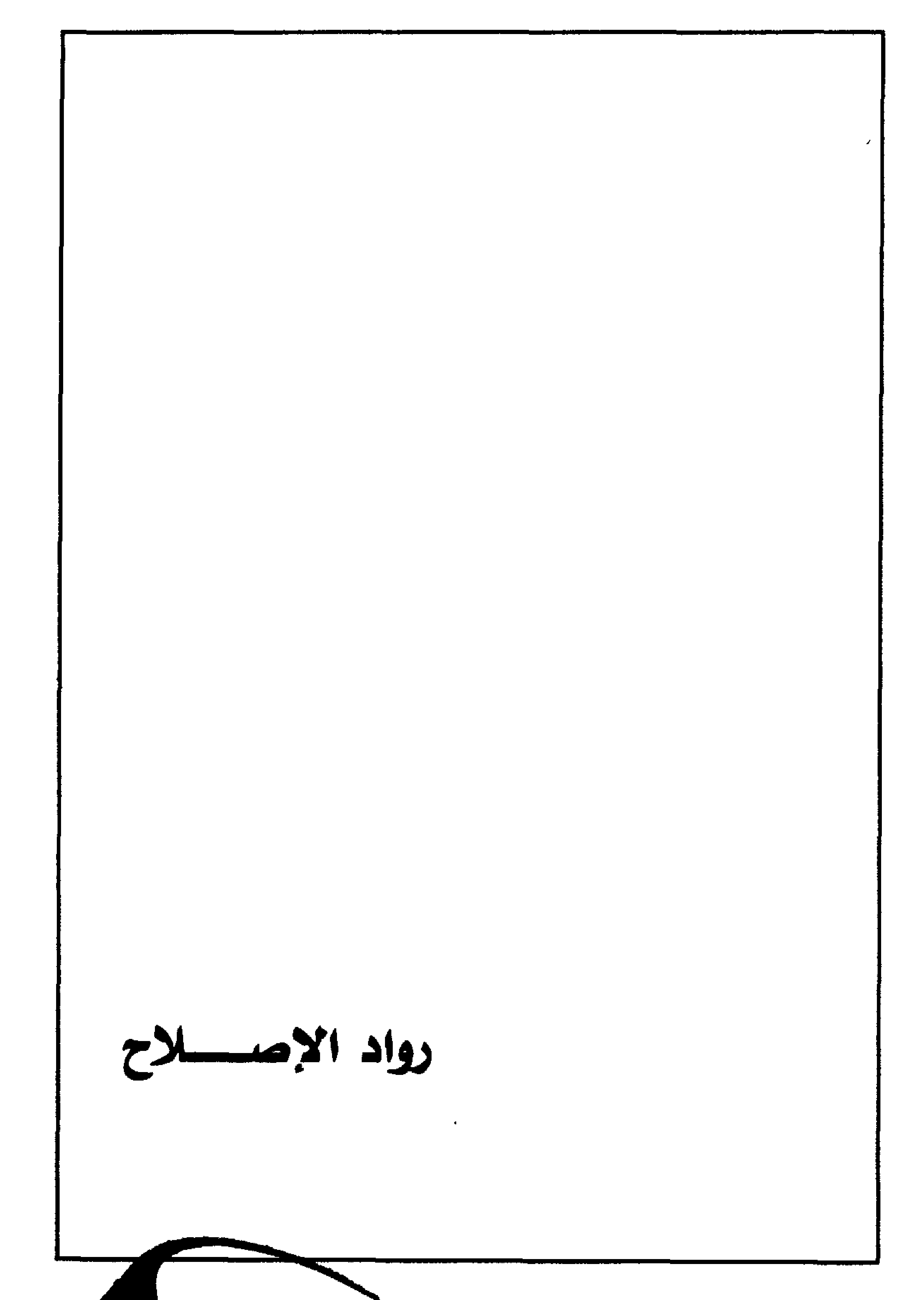


الهيئة المصرية العامة للكتاب

إهــــــــــداء٢٠٠٧

اسرة المرحوم الدكتور / السيد عبد الحليم الزيات

جمهورية مصر العربية


رواد الإصلاح

لوحة الغلاف

الفنان محسن شعلان

- مواليد القاهرة.
- عضو نقابة الفنانين التشكيليين - عضو الجمعية الأهلية للفنون الجميلة - عضو جمعية أصدقاء وكالة الغورى - عضو جمعية محبى الطبيعة والتراث.
- شارك فى أكثر من ثلاثين معرضاً جماعيًا فى الداخل والخارج منذ عام ١٩٧٣ حتى الآن - أقام العديد من المعارض الخاصة بمصر والخارج منذ السبعينيات وحتى الآن.
- له مقتنيات بوزارة الثقافة - متحف الفن الحديث بالقاهرة - ومقتنيات خاصة لدى الأفراد وبعض الهيئات بمصر والعالم العربى وأمريكا واليابان وأوروبا ومعظم دول العالم.
- حاصل على جائزة ملصقات العام الدولى للمرأة ١٩٧٥
- جائزة المسابقة العامة عن حرب أكتوبر ١٩٨٥ نظمتها الهيئة العامة للاستعلامات - جائزة مسابقة الماء فى حياة الإنسان ١٩٨٨ - ورد ذكر اسمه مع بعض أعماله الفنية فى موسوعة «ليون» الكندية - جائزة قومسيير جناح مصر بينالى الشارقة الأول ١٩٩٣.

صبرى عبد الواحد

رواد الإصلاح

رشيد الذَوَّادى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢
مكتبة الأسـرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأعمال الفكرية)

رواد الإصـلاح
رشيد الـذوّادى

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى
المشرف العام :
د. سـمير سرحــــان

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقـافـة
وزارة الإعـلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشــباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخًا تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

الفهرس

الإهداء

هذه مسالك ... وهذه سبل وأفكار

أهديها إلى

طاقاتنا الشابة المتطلعة لتقتفى الآثار

وتبنى المجد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

رشيد الذوادى من الكتاب التونسيين المعنيين بفن السير والتراجم يتابع كل نبتة تنجم فى حقل الفكر التونسى، فيمهد لها المكانة اللائقة بها فى سجل الأدب والثقافة والفكر، الذى أصبح حافلا بالإعلام.

وقد استقبلت المكتبة العربية بحفاوة تجارب الذوادى فى مجال التراجم من أمثال كتاب «حسن النورى» وكتاب «أبطال وشهداء» وكتاب «أعلام من بنزرت» وكتاب «أدباء تونسيون».

أما كتابه الذى نعرضه اليوم وهو كتاب «رواد الاصلاح» فيتميز بأنه رحلة حول خمسة من الرواد، عاشوا فى فترات متتابعة امتدت من عام ١٨٢٠ إلى ١٩٤٠، وتمثلت رسالتهم فى المحاولة الجادة لإصلاح المجتمع العربى الإسلامى فى فترة من أشد فترات حياته قسوة وظلما، فاستطاعوا بعبقريتهم وثورتهم ونضالهم وأصرارهم أن يمزقوا حجب

الظلام والجهالة، وأن يصيحوا فى وجه الجبروت الاستعمارى، وأن يفجروا فى نفوس مجتمعاتهم طاقات الثورة، وأن يبشروا بعالم أفضل، فكانوا طلائع الحرية وأضاءوا طريق الأمة نحو التحرر والاستقلال والتقدم الذى نسلكه اليوم.

وليست شخصيات الذوادى فى هذا الكتاب قاصرة على المحيط التونسى كما عودنا فى كتبه السابقة، ولكن دائرة الاصلاح اتسعت أمامه فجعل معها فى أنحاء العالم العربى الإسلامى أينما وجد الإصلاح ورجاله الذين ندين لهم اليوم بما أحرزناه من يقظة وما سنحرزه غدا من تقدم فى مجالات الفكر والحرية والثقافة والسياسة.

خير الدين التونسى

وحين تذكر كلمة الاصلاح فى تونس تتداعى إلى الذاكرة شخصية خير الدين التونسى، محاطة بهالة من التقدير والاجلال، سواء من المثقفين أو السياسيين أو رجل الشارع.

وخير الدين فى وعى الدائرة التونسية المحدودة ليس عبقرية عربية تونسية فحسب ولكنه أسطورة سياسية وفكرية على النطاق الأممى.

فهو ظاهرة شاذة بمقياس عصره وبيئته، وهو شخصية فذة على المستوى العالمى، حيث عاش ومارس حياته بين العشرينات والتسعينات من القرن التاسع عشر فى بلد متخلف مهدد بالاستعمار بين يوم وآخر.

وحبكا للأسطورة لابد أن يكون خير الدين من سبى القوقاز وأن يباع فى سوق استانبول، ليستقبله قصر نقيب الأشراف، فيتربى مع ابنه

الوحيد، وحينما تحزن الأسرة لفقد وحيدها تتخلص من شبح الذكرى بإعادة بيع رفيق حياته خير الدين، وبالتداول يصل إلى ساحة باى تونس، الذى يرى فيه شخصية غير عادية فيخصص له المعلمين والمربين فتسعفه همته فلا يقتصر على تلقى المبادىء بل يعكف على فنون الحرب والسياسة ويلازم العلماء فيتقن الفرنسية إلى جانب العربية والتركية.

وتونس يومئذ بلد متخلف، لم يبق له من الحضارة سوى هيكل متداع، ولا من الدين إلا بعض المظاهر والقشور التى انزوت فى الكتاتيب وأركان التكايا والزوايا بينما التعليم المدنى خاضع للجاليات الأجنبية وما يتبع ذلك من فساد الحكم وانهيار الاقتصاد.

لقد أزعج ذلك الباى أحمد باشا مولى خير الدين، فحاول إدخال بعض النظم على هياكل الادارة، وصادف ذلك اهتمام الدولة العلية على عهد محمود الثانى باقتباس بعض النظم الأوروبية وتطبيقها فى مختلف ولاياتها ومن بينها تونس.

وبمعونة خير الدين استطاع الباى أن يشجع الثقافة وينظم الجيش والادارة، ويخفف الضرائب ويلغى الرق.

وفى هذه الأثناء ألحق خير الدين بالحاشية، وصحب الباى فى زيارته لملك فرنسا، ثم عين أميرا للواء، ووكل إليه بعض المهام العسكرية والاقتصادية الخطيرة، وكلف بإصلاح أوجه الفساد الإدارى والانحرافات السياسية فى البلاد.

وقد اقتضت بعض هذه المهام أن يقيم في فرنسا ثلاث سنوات متصلة، حيث واتته الفرصة لتوسيع آفاق ثقافته، والتعرف على أعلام أوروبا وبلدانها وأسباب تقدمها.

وتداول كبريات الوظائف، فعين وزيرا للحربية، ثم رئيسا للوزراء، كما تداولته العقبات التي اعترضت طريقه الاصلاحي فترك الحكم، وعكف على تدوين تجاربه في كتاب حلل فيه تطور المجتمعات المتقدمة وسماه «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك».

وظل خير الدين بعيدا عن الحكم سبع سنوات انتشر فيها الفساد ووقع فيها الانهيار الاقتصادي فاستدانت الحكومة بفوائد ربوية باهظة اضطرتها لفرض ضرائب عالية مما فجر الثورة الشعبية المشهورة بقيادة على بن غذاهم.

وخوفا على تونس من تفاقم الأمور حولها، وانقضاض الاستعمار الفرنسي الذي داهم جارتها الجزائر- كلف الباي خير الدين برئاسة اللجنة المالية التي شكلت لتسوية ديون تونس، فأنقذها من الانهيار الاقتصادي والاستعمار السياسي، وقام بتوثيق العلاقات بينها وبين الدولة العلية، فعينه الباي وزيرا أكبر إلى جانب رئاسة اللجنة المالية.

واستيقظت سعايات الناقمين على خير الدين وعلى الاتجاه الاصلاحي عامة، فنحى عن الحكم وصودرت حريته، مما جعله يفكر في الهجرة وحينئذ استدعاه السلطان عبدالحميد الذي كان قد اطلع على آرائه الاصلاحية في كتابه «أقوم المسالك» فعينه رئيسا للجنة الاقتصادية ثم عينه صدرا أعظم للدولة العلية.

لكن قلبه ظل معلقا بتونس، متابعا لاحداثها وقد حزن حزنا شديدا عندما علم باحتلالها على أيدى الفرنسيين وظل حزينا عليها حتى فارق الحياة.

ولقد كان خير الدين طاقة فكرية ووطنية وإصلاحية جعلته من أعلام القرن التاسع عشر، ووضعته على رأس المصلحين العرب والمسلمين فى فترة كانت تموج بالتقلبات العالمية الخطيرة فكان من حسناته أن أصدر أول دستور فى البلاد الإسلامية كلها هو عهد الأمان.

وكان أعظم تراث فكرى وسياسى واجتماعى خلفه خير الدين بل خلفته هذه الفترة هو كتاب «أقوم المسالك» الذى حلل فيه أحداث العالم الإسلامى على ضوء الحركة التقدمية التى شملت الدول الأوروبية وجعلها تسبق الشرق بمراحل بعيدة.

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه صدر عن مصلح عربى مسلم وحوى أفكارا سياسية تقدمية فى فترة مبكرة من حياة الشرق الفكرية المتخلفة.

وتذكرنا سيرة خير الدين بحياة ابن خلدون فى عناصر كثيرة مشتركة من بينها الآراء الثورية الجريئة، والدعوة للانقضاض على التقاليد البالية، وعلى أسباب التخلف التى تحيط بالعالم الإسلامى، كما يتشابهان فى إنتاجهما الفكرى التقدمى بالنسبة لعصريهما، فقد لفت كتاب خير الدين أنظار العالم كله وترجم فور صدوره إلى العديد من اللغات الأوروبية وما يزال يجد صداه حتى الآن، ويعتبر من مفاخر الفكر التونسى، كما يعد مرجعا مبكرا للدراسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحوله تدار الرسائل والبحوث الجامعية.

وإذا كان الدارسون التونسيون يعلقون الأهمية الكبيرة على مقدمة هذا الكتاب وحدها لما حوت من أفكار وآراء ذاتية وإذا كانوا يرون أن الكتاب نفسه لا يعدو أن يكون معلومات جغرافية وتاريخية واجتماعية عن البلاد الأوروبية التى زارها، فإن بعض الباحثين فى المشرق قد كشفوا فى صلب الكتاب عن نظريات عربية أصيلة فى الإدارة السياسية لم تتوصل إليها أوروبا إلا فى أوائل القرن العشرين.

وفى هذا الكتاب ينادى خير الدين بالقضاء على الاستبداد والحكم المطلق، ومقاومة الدكتاتورية، كما يرى أن المبادىء الإسلامية هى أصلح الأنظمة للمجتمع الحر العادل، كذلك يرى أن يجمع العالم الإسلامى بين روح الإسلام وما فى المدنية الحديثة من عوامل التقدم كما كان يحبذ النظام الرأسمالى ويدعو إلى التعليم المهنى.

وقد ترك خير الدين إلى جانب ذلك بذرة الحرية والاصلاح والتقدم التى ما تزال تونس تحمل شعلتها وما يزال تلاميذه يسيرون على دربه فى الحرية والاستقلال والتقدم ولا ينكر أبناء تونس أن آراء خير الدين وما فيها من وطنية وما استلهموه من مبادئها الاصلاحية قد عصمتهم من الغرق فى دوامة التجهيل والتغريب، ومنحتهم حصانة المقاومة ضد الاستعمار الرهيب الذى انتصروا عليه.

بيرم الخامس

أما الشخصية التونسية الثانية فى مجال الاصلاح فهى شخصية محمد بيرم الخامس، الذى عاش فترة ما بين الاربعينات والتسعينات

من القرن الماضى، ويعد من أحرار العالم الإسلامى، فلقد نضجت اهتماماته بالسياسة واصلاح شؤون الحكم فى وقت مبكر، وتولى مشيخة بعض المدارس الكبرى وهو ما يزال فى شرخ الشباب، كما تولى التدريس فى جامعة الزيتونة، فبث فى تلاميذه روح التمرد والنقمة على الأوضاع السائدة فى العالم الإسلامى ووجه المثقفين إلى الاصلاح، وقد رحل فى أنحاء الشرق والغرب واستقر بمصر حيث أصدر جريدة «الإعلام» وتولى القضاء وبعض المهام السياسية وساهم فى النهضة الفكرية وألف فى الفلسفة والعلوم الشرعية وأبرز مؤلفاته كتاب «صفوة الاعتبار» وهو موسوعة فى السياسة والتاريخ والرحلات ووصف البلدان ومجتمعاتها وسياستها.

وقد مارس الاصلاح من جذوره إذ كان يرى أن إصلاح التعليم هو البداية، كما نادى بإصلاح الاخلاق وتطبيق النظم النيابية.

وهو من أنصار خير الدين ومؤازرى دعوته، وقد استعان به خير الدين فى تنظيم التعليم والأوقاف، وتولى بعد خير الدين إصلاح القضاء، وتنظيم المستشفيات وحاول إصلاح نظم الحكم.

والتقى فى الشرق بأقطاب الفكر والسياسة، أمثال الشريف حسين، ومدحت باشا، وسعد زغلول، وأديب أسحاق، وسليم نقاش.

وخلاصة آرائه تتركز فى الرجوع إلى مبادىء القرآن وتطهير الدين من البدع، وفتح باب الاجتهاد والانتفاع بثمرات العلم الحديث وتجديد أساليب التعليم.

عبدالحميد بن باديس

أما عبدالحميد بن باديس الذى عاش بين عام ١٨٨٩ وعام ١٩٤٠ فلم تعرف الجزائر خطيبا يماثله فى البلاغة وقوة التأثير فى الجماهير.

كان من الرواد الذين فجروا الثورات، ودفعوا شعوبهم إلى ميادين التقدم، وقد استمسك بعروبة الجزائر فى مواجهة الاستعمار الاستيطانى الذى كاد يجتاحها إلى الأبد، وبذلك أصبح أبا الجزائر ومعلمها.

ولد ابن باديس فى قسنطينة الجزائر، والتحق بالزيتونة فى تونس وفيها تخرج وقام بالتدريس لطلابها.

وممن تأثر بهم البشير صفر، والثعالبى فى تونس، والطاهر الجزائرى فى دمشق، ومحمد عبده، وجمال الدين الأفغانى، وعبدالرحمان الكواكبى، ومحمد اقبال، وقاسم أمين على اختلاف اتجاهاتهم ومذاهبهم فى الإصلاح.

وقد اصطنع فى سبيل تحقيق أهدافه الإصلاحية مختلف الوسائل كفنون الأدب، والصحافة، والخطابة، ولكى تظل الجزائر عربية مسلمة كان لابد من بعث الحركة الدينية التجديدية ونشر اللغة العربية فى جميع مجالات الحياة.

جمال الدين الأفغانى

وأما جمال الدين الأفغانى، فإلى جانب ماهو معروف عنه من معلومات شائعة ركز على دوره الرائد فى علاج أزمات العالم

الإسلامى، ودعوته إلى التجمع تحت ظلال الجامعة الإسلامية وكانت سياحاته فى جميع أنحاء القارات ذات أثر فعال فى النهوض بالعالم الإسلامى، غير أن دوره فى مصر، والتقاءه بمحمد عبده، وتأليف جمعية العروة الوثقى، وتعاونهما على ايقاظ العالم الإسلامى، وتنقية الإسلام من الخرافات، واعلان الثورة على الاستعمار والاقطاع ـ كان من أكبر الأدوار التى لعبها جمال الدين الأفغانى فى حياته كلها.

محمد عبده

والحديث عن جمال الدين لابد أن يستدعى الحديث عن تلميذه وحواريه محمد عبده، لأنهما لعبا دورا مشتركا فى حياة الأمة العربية والعالم الإسلامى، بحيث يكمل كل منهما الآخر.

غير أن المؤلف أبرز شجاعة محمد عبده وجرأته فى الجهر بآرائه وإقدامه على التجديد، وحملته على الجمود والرجعية، كما تحدث عن أدواره الدينية والسياسية وعن مواقفه من إصلاح التعليم، وما لقيه من تكريم الهيئات فى مختلف أنحاء العالم وما صادفه من عقبات فى سبيل تحرير الفكر، وتطهير الدين وتحرير الأساليب الأدبية من بقايا عصور الانحطاط، وتقويم أسلوب الصحافة وتصحيح أفكار المستشرقين عن الدين الإسلامى ورد تهجماتهم عليه.

غير أن المؤلف وقع فى التباس صغير عند حديثه عن الحركة التجديدية التى قام بها محمد عبده، فقد اشتبه عليه اسم الكاتب الكبير عباس محمود العقاد، مؤلف كتاب «محمد عبده» فى سلسلة أعلام

العرب، وعباس محمود العقاد مترجم كتاب «الإسلام والتجديد فى مصر» وهما شخصان مختلفان.

وهكذا يقدم لنا الباحث التونسى رشيد الذوادى فى هذا الكتاب نماذج جديدة من أعلام الفكر والإصلاح، تجمعهم نزعة الإصلاح وإرادة تغيير المجتمع، فى فترة حرجة من حياة الأمة العربية والعالم الإسلامى.

تجمعهم كذلك المعاصرة، كما تجمعهم العروبة والإسلام مهما اختلفت بهم الديار، ويثقل ضميرهم الواجب نحو الوطن والالتزام بحماية الدين.

والقدر المشترك بينهم يتمثل فى حرية الرأى، والشجاعة فى الجهر بالحق، والحرص على لغتهم والتقاليد الصالحة للمجتمع الإسلامى الواعى.

ولقد بذل المؤلف الكثير من الجهد لكى يجمع أطراف المعلومات عن هؤلاء الأعلام سواء فى جمع المراجع الكثيرة والمبعثرة فى أنحاء العالم أو فى تنقية هذه المعلومات مما أدخل عليها لتشويه سيرة هؤلاء الأعلام، سواء من الأدعياء أو الحاقدين وبهذا استطاع أن يقدم إلينا هؤلاء الإعلام بالصورة اللائقة بهم، وبما بذلوه من جهود مضنية فى سبيل مجتمعاتهم وبالصورة التى تليق بالمؤلف كباحث ألزم نفسه بأن ينصف هؤلاء المجاهدين من قالة السوء ومن الحملات المغرضة التى وجهت إليهم فى حياتهم كثيرا، وبعد رحيلهم أكثر وأكثر.

ولم يكن ذلك بالأمـر الهين، فإن كلمـة الحق تثـقل ضـمـائر الذين يتـحرون فيها وجه الصواب بالجمع والتدقيق والموازنة والتحـقيق حتى تبدو كلمة الحق فى المكانة الجديرة بها.

ويبدو من عديد المراجع وأشتات المصادر التى استنطقها المؤلف ومن الموازنات والتدقيق وتقليب وجوه الرأى، والتحقيقات والتصويبات التى تحراها الذوادى أنه يحترم التاريخ ويحترم قلمه، وقبل هذا وذاك يحترم قارئه، وفى سبيل ذلك يهون كل جهد يبذله الباحث لكى يؤدى واجب الحقيقة، ولكى يكون جديرا باحترام قرائه، وهو الأمر الذى نغبط من أجله الذوادى ونباركه عليه.

القاهرة : رضوان إبراهيم

هذا الكتاب

كانت قافلة الحياة قبل ظهور الإسلام جائرة السبيل، حائرة الدليل، خائرة العزيمة.

وكان الإنسان يمشي على أرضه خافت الصوت، خافض الجناح، كأن الأرض ليست بأرضه، وكأنما الحياة هان وجودها وانطمست معالمها.

ومنذ بزوغ الإسلام انبثق فجر جديد في الكون؛ بدد ظلمات الجهل الكثيفة وأنار سبيل التائهين فاهتز لهذا الاشعاع النوراني إيوان كسرى وعرش قيصر، واهتدى الإنسان إلى الحق والتدبر وإلى التعلق بالشعور الحافز وبشرف الغاية والاستشهاد في سبيل المبدأ.

ومنذ ذلك الوقت بدأت معركة التخطيط الكبرى من أجل صنع مستقبل أجيال هذه الأمة.. بدأت صفحة إسلامية مشرقة لاتزال تمتد إلى اليوم بمقوماتها وقيمها وثقافتها وفكرها.. كانت هناك عملية إحياء شاملة متعددة الجوانب لرسم المسلك الجاد، وللتأكيد على شمول العقيدة ووحدة الهدف وتلاقي الافكار وامتزاجها في أعمق المشاعر.

وأتيح لهذه الدعوة أن يعلو صوتها وأن تنبه إلى مرحلة البعث واليقظة، فكانت فتوحات فى الأرض للحرية والعمران، وفتوحات فى العقيدة للتوحيد والإيمان، وفتوحات فى السياسة للعدل والتحرير والاخاء.

إنه نداء ثورى لم يألفه الناس من قبل.. كان طابعا فكريا واضحا وأكيدا من أجل رسم أقرب الطرق إلى الهداية، وحفظ الناس عن مواطن الهلكة، وفى سبيل دعم الصفوف وتقوية الوازع الاخلاقى.

ومضت هذه الدعوة إلى طريقها القاصد وأهدافها المنشودة.. أثبتت بالبرهان القاطع أن الإسلام دين الفطرة والحكمة والعلم واليقين والنظر، وأن الجهل هو نهاية الحمق فلولاه لما اختلف الناس فى عقائدهم وتباينوا فى تصوير آلهتهم.

وحقق المسلمون من خلال نضالهم الشاق صفحات ذهبية رائعة تنطق بشجاعتهم وبأياديهم على الفكر الإنسانى عامة خاصة فى القرون الأربعة الأولى؛ حيث بلغوا فيها شأنا عظيما فى الخلق والثقافة والحضارة، مما هيأهم لكى يكونوا سادة الدنيا ومن محررى العقول البشرية فيها، كما باتت عواصمهم الكبرى كالمدينة، ودمشق، وبغداد، والقاهرة، والقيروان، وقرطبة تنعم فى حلل الرفاه والازدهار مما جعل الناس تتسابق للاستظلال بظلها والارتماء فى عقيدة أهلها.

وصدت حركة المسيرة الإسلامية فى زحفها العملاق فكبلت بالعقاب والتخلف الذهنى لما أولت آيات القرآن فى غير ما وضعت له وطبقت تعاليمه حسب الأهواء، وأخرجت آياته عن أبعادها ومراميها التى لا تستهدف كلها إلا الإصلاح.

نزلت بالمسلمين النوازل، وتوالت عليهم النائبات والخطوب، وبدت عليهم عوامل الضعف والوهن، فهوى نجمهم، وتحكم فيهم الأميون، واستضعفهم الاعداء خاصة بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس سنة ١٠٩٩م.

انطوى المسلمون على أنفسهم زمنا طويلا فلا تجد فى أوطانهم إلا جهلا ومرضا وعدما فتعطل تيار الفكر الإسلامى؛ الذى استطاع أن يبلغ الأندلس وجنوب فرنسا، واختفت حضارته بعد التوسع والامتداد فلم يعد المسلمون يعرفون شيئا عن تقدم أوروبا فى العلوم والفنون والاقتصاد الذى ابتدأ منذ القرن الخامس عشر الميلادى .. إنهم أصبحوا عالة على ماضيهم الفكرى والثقافى والصناعى مما ساعد على تجميد العقول واستمرار الخمول، وانتشار الأمية.

كانت هذه حالة البلاد الإسلامية ولم يكن فى بيئتها ما يساعد على النهوض والتقدم . فكان لابد من تصحيح الأوضاع بنور جديد يضئ الدروب ويفتح البصائر ويحرك العزائم لانهاض العقل الإسلامى واستحثاثه فى سبيل التفكير والنظر والمحافظة على الاعتزاز بالقديم وسد ما به من نقص بإضافة كل رائع وطريف إليه.

وكما أنار الفكر العربى أوربا فى عهودها المظلمة استعان الشرق فى أيام انحطاطه بها، فمن احتكاك هذا بذاك انبعثت روح جديدة فى البلدان الإسلامية.. توافد أبناؤها على أوروبا للأتجار والاطلاع وللتثقف بداية من القرن السادس عشر على عهد أمير لبنان فخر الدين المعنى :

(١٥٧٢ ـ ١٦٣٥) ثم بعد حملة (نابليون بونابرت) على مصر سنة ١٧٩٨ والتى مكنت فرنسا من تحقيق عدة أهداف كبرى فى المشرق منها:

١ـ التوسع فى المنطقة العربية.

٢ـ سد طريق الهند فى وجه بريطانيا.

٣ـ غزو مصر بسلاح المعرفة أيضا.

أيقظت هذه الأهداف مصر من سباتها العميق، ونبهت أبناء العالم الإسلامى إلى ما كان خافيا عنهم من حقوق وحملتهم مسؤولية التحجر والمغالطة، ودفعتهم إلى زيادة التعمق فى أوضاعهم السياسية والاجتماعية بالمقارنة إلى نهضة أوروبا الحديثة التى انطلقت بعد الثورة الصناعية الكبرى.

وكان من نتائج هذا الاحتكاك تعرف الغرب الأوروبى على خفايا أوضاع البلدان الإسلامية فطمع فى خيراتها وفى استغلال طاقاتها.

وفكر ساسته فى طرائق الاستغلال بخنق حرية الفكر، وطمس شخصية الشعوب وتفقيرها، وبالاستعمار الاستيطانى، وبفتح مجالات التجنيس والادماج، وبإقصاء اللغة العربية، وبمؤامرات التغريب المتعددة، وبإخلاء الطريق أمام رجال التبشير ليقوموا بالدعوة إلى المسيحية إلخ..

وهكذا تمت عمليات التوسع فى العالم الإسلامى من طرف الأوروبيين بعد مؤتمر برلين: (١٨٧٨) الذى أقر تقسيم تركة «الرجل

المريض، والقضاء على كل ما تمثله مقومات الفكر والدين والاجتماع والتعليم واللغة فى حضارة الإسلام المعاصرة.

فمن هذا الطريق تم الاتصال بين العالم الإسلامى والغرب الأوروبى.. عرف كل منهما الآخر وقدر احتياجاته واختبر قدراته.. عرف الغرب ما تمتاز به أراضى الشرق من ثروة روحية ومادية.

واكتشف الشرق من جهته أيضا الوجوه المتعددة للحضارة الأوروبية الحديثة.. أدرك أهله وجهين من وجوه هذه الحضارة:

الوجه الأول يتمثل فيما كان لحضارة الغرب من تأثير إيجابى ناشئ عن التقدم الفكرى والسياسى والحضارى بوجه عام، نتيجة ما أحدثته كل من :

(أ) الثورة الفرنسية (١٧٨٩)؛ التى كان لها فضل السبق فى تغيير مجرى تاريخ العالم السياسى؛ إذ أحدثت تحولا اجتماعيا وسياسيا كانت من نتائجه:

الاعتراف بحقوق الإنسان، والمناداة بتطبيق الديمقراطية، وبحق الشعوب، وبالمساواة والعدل الاجتماعى، والاخاء الإنسانى.

(ب) الثورة العلمية: التى هيأت للاكتشافات الإنسانية الكبرى.

(جـ) الثورة الصناعية: التى عززت قوة أوروبا ودعمت مركزها الدولى.

أما الوجه الثانى فينحصر فى الاحساس بالنواحى السلبية فى حضارة الغرب التى تتجسم فى أبشع أنواع الاستعمار وأشنع أنواع الاستغلال.

فماذا يا ترى يكون موقف النخبة الواعية من أبناء الوطن الإسلامى الذين استنكفوا عمليات التفريق والتجزئة والإبادة والتجنيس والإدماج وآلمهم القهر وأحسوا بالظلم قبل سواهم؟

هذا ما ترى الجواب عنه عندما تتصفح بطولات رواد أمثال : الجنرال حسين، وخير الدين التونسى، ومحمد بيرم الخامس، وجمال الدين الأفغانى والامام محمد عبده، وعبدالحميد بن باديس، ومحمد البشير الإبراهيمى.

إن كل واحد من هؤلاء الرواد قد نادى بالإصلاح وساهم فى حركة الدفع الثورى والتحرر الفكرى والاجتماعى فى العالم الإسلامى، وكان عنوانا للتحدى والاصرار فيما بين عام ١٨١٦ وعام ١٩٦٥م.

فمن هذه الوجهة كان لابد من إحياء ذكرى هؤلاء الرواد لنكون أوفياء لرسالة الفكر والقلم.

بنزرت فى ١٠ جانفى ١٩٧٣

رشيد الذوادى

الجنرال حسين

١٨١٦ـ١٨٨٦م

توطئة :

لم تكن يقظة العالم الإسلامى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلا منبعثة من أعماقه، وحدثت هذه اليقظة على أثر نجاح عمليات التوسع فى العالم الإسلامى من طرف الأوروبيين بعد (مؤتمر برلين) المنعقد فى سنة ١٨٧٨ ؛ الذى أقر تقسيم (تركة الرجل المريض) والقضاء على كل ما يمثله من مقومات.

فى ذلك الظرف بالذات وحينما بدا الاستعماريون الأوروبيون على وجههم الحقيقى كان لابد من تصحيح للأوضاع بفتح البصائر وتحريك العزائم لانهاض العقل الإسلامى واستحثاثه «فى سبيل التفكير والنظر والمحافظة على الاعتزاز بالقديم وسد ما به من نقص باضافة كل رائع وطريف إليه»، وهكذا ظهرت «الوهابية» قبل الحملة الفرنسية على

مصر، وظهرت «السنوسية» في شمال أفريقيا، وامتدت دعوات الإصلاح في كل من تونس بزعامة محمود قابادو وخير الدين باشا، وظهرت في تركيا حركة الاتحاديين بزعامة مدحت باشا، كما ظهر جمال الدين الأفغاني في الشرق ، وخلفه فيما بعد : الإمام محمد عبده، ثم رشيد رضا، ثم في الجزائر برزت الحركة السلفية متأخرة قليلا غير أنه ممن اشتهر في هذه الفترة محمد بن يوسف أطفيش من وادى ميزاب؛ والذى جاوزت مؤلفاته ثلاثمائة كتاب، ثم كان محمد بن كنون المتوفى عام ١٨٨٤م هو أول من دعا في المغرب الأقصى إلى تحرير العقيدة وقد تأثر المغرب كله به واضطهد هذا المصلح بسبب أفكاره ودعوته التجديدية هذه[١].

هكذا كان بروز المصلحين التونسيين وغيرهم في العالم الإسلامي.. ظهورهم كان نتيجة لتدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية، وفي عهد بات فيه العالم الإسلامي يشكو من عوامل الضعف والوهن الشئ الكثير، وارتكزت دعوتهم عموما على مقاومة الحكم المطلق والبدع، وعلى محاربة الخوف والانغلاق على النفس، والحيف، والاستغلال، وعلى تمتين عرى (العروة الوثقى)، وإحلال اليقظة في الشعوب، والعودة إلى السنة، وفتح الأذهان لتقبل كل جديد.

إن الطابع المميز لهم - وأن اختلف من واحد إلى آخر - كان دائما يدعو إلى التغيير والتجديد الإسلامي.

في هذا المنعطف التاريخي كان هناك شعور بالحاجة إلى التغيير.. التغيير في العقلية، وفي الاتجاهات الفلسفية للفكر، وفي السيطرة على

التصورات الذهنية، وفى النظر فى البديل الذى نوجه فيه الطاقات والمواهب والقدرات.

***

وكما قامت الدعوة الاصلاحية بالمشرق؛ قامت الدعوة الإصلاحية بتونس [٢].. برز فى ذلك الوقت الكثير من التونسيين الشبان والشيوخ.. جمعهم حب العمل لانقاذ تونس مما قد تتعرض له من مكائد ومناورات، وطمس شخصية، وإدماج واستلاب.

إن جميعهم هب للذود عنها حتى لا تنجح المخططات للقضاء عليها القضاء الكامل.

وكان يدفع هؤلاء حب فى العمل، ووطنية صادقة، وتشبث بالخلافة وغيرة على الإسلام وعلى المكاسب.. وكان النصر يرنو لهم من بعيد لكن كيف يحرزون عليه وأمامهم صور التلاشى والتمزق، وضعف الحكم وانهيار الاقتصاد والأمية ووفرة الأمراض الاجتماعية والأخلاقية؟

إن حال تونس يومئذ كان يتطلب التغيير؛ خاصة منذ سنة ١٨١٥م، والتغيير هو علامة صحة على سلامة المجتمع الذى يرنو إلى الافضل.. وهذا التغيير تحتمه عملية التفتت الداخلى التى أفضت فيما بعد إلى فقدان السيادة سنة ١٨٨١م.

لقد بدا لهؤلاء المصلحين التونسيين أن القرن العصيب بدأ.. بدأ منذ وفاة حمودة باشا: (فى سبتمبر ١٨١٤م) وانقراض الفريق الحاكم الذى

كونه ذلك الباى، وبداية سلسلة الكوارث على المستوى الفلاحى مثلا (أزمة ١٨٦٧)، وبدايات حملة أوروبا على بلدان المغرب العربى التى جاءت عقب عام ١٨١٥م على أثر عودة أمن البلدان الأوروبية، ولذلك رأينا ما رأينا أثر انتصاب الحماية الفرنسية على الجزائر: (١٩٣٠م)، وما أعقب ذلك الاحتلال المشؤوم من مضاعفات قهر وتغير فرضتهما الرأسمالية الغازية؛ ذلك أن الحالة ازدادت سوءا فى تونس؛ إذ انحطت قيمة المنتجات التى تصدر منها مثل : (الحبوب والزيوت والشاشية وغيرها)، كما حصل تضخم فى الواردات أدى إلى نزيف نقدى وإلى تخفيض فى العملة، كما أن تجارة التصدير صارت من مشمولات التجار الأوروبيين [٣].

كل هذا كان دافعا قويا لهؤلاء الوطنيين الذين ساروا على نفس منهج فكر الشيخ الشاعر محمود قأبادو؛ الذى فجر الدعوة إلى الاصلاح فى تونس والذى كان من رأيه أن العالم الإسلامى ينبغى أن يجدد نفسه ماديا ليدفع الصولة الأوروبية عن نفسه، وتتلخص نظريته: فى «أن العالم الإسلامى متأخر، مع أن دين الإسلام كفيل له بالتقدم، فينبغى أن يعزى سبب التأخر إلى أمر خارج عن جوهر الدين لما فقد عند المسلمين تأخروا، وقد أظهرت المقارنة أن هذا الأمر إنما هو العلوم الحكيمة، ولما اقتبس الأوروبيون هذه العلوم عن الإسلام، سادت أوروبا على البلاد الإسلامية بنسبة ما أخذت هى من تلك العلوم وهجر المسلمون منها، فلا سبيل حينئذ إلى أخذ الإسلام حظه من السعادة إلا باستعادة هذه العلوم التى أضاعها.

وحيث أن الأوروبيين قدروا قدرها وهذبوها، وتطورت على أيديهم فلا سبيل إلا إلى اقتباسها عن الأوربيين بالنقل والتعلم(٤).

***

وعلى ضوء توجيه هذه الفكرة دخل رجال الإصلاح في تونس معترك العمل، ويذكر محمد الفاضل ابن عاشور أن هذه الدعوة لاقت استحسانا كبيرا من طرف أهل الفكر وقتئذ(٥) إذ تحزب لها جماعتان:

أ) جماعة الوسط الزيتوني: وهي جماعة آمنت بعلم قابادو وبفكره فدعت إلى شد أزره وبرز من هذه الجماعة نابغتان هما: الشيخ سالم بوحاجب،(٦) والشيخ محمد بيرم الخامس(٧).

ب) جماعة المدرسة الحربية بباردو : وهي جماعة أحاطت بالمذاهب والنظريات وتوسعت في فنون الحكمة، وتمرنت على الرياضيات والعقليات والفنون الحربية ونبغ من بين أفرادها نابغتان هما: الجنرال حسين، ورستم.

- الجنرال حسين:

إذن فالجنرال حسين هو أحد المصلحين؛ الذين تكونوا على فكر ومنهج المفكر محمود قابادو وهو واحد من الذين لازموه وتوخوا طريقته.. لكن من هو الجنرال حسين؟.. وكيف كانت نشأته؟.. وماهو منهجه الاصلاحي؟

إن الجنرال حسين أو (الفريق حسين) كما كان يكنى؛ هو من عائلة جركسية في جبال القوقاز.. ولد عام ١٨١٦ ونزح إلى تونس في مدة الأمير مصطفى باشا، وكان عمره عند قدومه إلى تونس دون العشرين.

وتربى (الفريق حسين) فى كنف الأمراء الحسينيين بقصر باردو، فاعتنوا بتعليمه كما كانوا يعتنون بمماليكهم وأبنائهم.

وأثر تأسيس (مدرسة المهندسين بباردو) من طرف المشير أحمد باى الأول اختير هذا الشاب ضمن من سيلحقون بها، وهنالك تلقى الفنون العسكرية والعلوم العربية أيضا.

إن أستاذه فى العلوم العربية هو الشيخ محمود قابادو، و (قابادو) هذا؛ كان عبقرية تونسية جمعت معارف عجيبة من فنون القول والحكمة والرياضيات والآداب، وقد «تعاطى اللغة العربية وأدبها ففاق جميع علماء عصره فى الاحاطة بمادة اللغة ورواية الأدب ومعرفة التاريخ [٨] حسبما يذكر ذلك محمد الفاضل ابن عاشور فى كتابه (الحركة الأدبية والفكرية فى تونس).

كما أتقن (الجنرال حسين) مختلف العلوم الرياضية، والطبيعية، واللغات الأجنبية عن الاساتذة الأوربيين؛ الذين جلبوا لتدريس هذه المواد بـ (مدرسة المهندسين) أو (بمكتب العلوم العربية) بباردو.

وأمكن للطالب (حسين) من أن يبرع فى العربية ومن أن يتقن العلوم العسكرية والعقلية والنقلية إلى جانب اللغات التالية وهى: (الإيطالية) و (التركية) و (الفرنسية) ؛ فكان كما ذكر المؤرخ محمد الفاضل ابن عاشور مثقفا واسع الاطلاع لأن «ثقافته راقية، وكان من الناحية العلمية والمقدرة القلمية فى العربية واللغات الأجنبية يفوق جميع رجال الدولة والمماليك فى عصره، حتى الوزير خير الدين [٩].

ـ وظائفه:

وأمام تفوقه فى الدراسة أصبح أهل الحل والعقد ينظرون إليه بعين الاعتبار فرقى فى عهد أحمد باشا الأول إلى رتبة «بكباشى» : (عقيد) وألحق بعساكر (الخيالة) وبقى متقلبا فى تلك الخطة إلى آخر مدة هذا الباى.

وما أن تولى المشير الثانى محمد باشا حتى التفت إلى مترجمنا ورقاه إلى (أمير آلاى)؛ شأنه فى ذلك شأن معظم خريجى «معهد العلوم الحربية» بباردو كالوزير (خير الدين باشا) والوزير (رستم).

والملاحظ أن هذه الخطة بوأته لأن يكون من جملة عظماء الرجال فى الدولة، لذلك رأيناه يسهم فى عملية تطوير مجتمعه. فعهد إليه بتدوين آراء اللجنة المؤلفة لتفصيل (عهد الأمان) فى سنة ١٢٧٤ هـ (١٨٥٧م)، ثم فى عام (١٨٥٨م) لما تأسس مجلس بلدية تونس المكون من عشرة أعضاء يختار رئيسا لهذا المجلس؛ فكان أول رئيس بلدية فى تاريخ تونس الحديث [١٠].

وحرص (الجنرال حسين) عند اضطلاعه بهذه المسؤولية أن ينقطع لخدمة الصالح العام فى إدارة البلدية بجد وأمانة يشهد بها كل المؤرخين، كما سهل عملية توريد البضائع، وأقام قسطاس العدل على الأسواق؛ مما استجلب الطمأنينة فى النفوس والرخاء فى الرزق.

واشتهر شيخ مدينة تونس (حسين) بتقشفه ونظافة يده؛ حتى أنه اتخذ فى (دار العشرة) مقر المجلس البلدى بيتا صغيرا سكن فيه بعد أن

كان يسكن ثكنات الجنود بباردو، ولذلك اشتهرت هذه الدار فيما بعد بـ «دار حسين».

وتولى (الفريق حسين) عملية تطوير وتحسين (المطبعة الرسمية) في عهد الصادق باى، كما وضعت أعمال المطبعة وتحرير (الرائد الرسمى) تحت نظره، وأمام نشاطه المتزايد سواء فى (البلدية) أو فى (الرائد) سماه الصادق باى (فريقا)، ثم عينه عضوا فى (المجلس الأكبر) وهو بمثابة (مجلس النواب) ثم رقاه؛ كعضو بـ (المجلس الخاص) [11].

لكن طينة (الفريق حسين) لم تكن من نفس طينة (الصادق باى)؛ لذلك سرعان ما نفر من العمل مع (الصادق باى) ومع رجال دولته المختلسين. فاستقال من مناصبه وخرج يسوح فى أوربا وأمريكا، كما زار عدة بلدان أخرى من بينها المغرب الأقصى، وختم سياحته هذه بأداء فريضة الحج، وفى أثناء ذلك مر على مصر، ثم استقر فى (دار الخلافة) باسطانبول وعرض عليه المرحوم: (عالى باشا) عدة وظائف؛ لكنه أعرض عَن جميعها لما ورد عليه الطلب من تونس بالرجوع إليها..

***

آثر (الفريق حسين) خدمة وطنه ونفع شعبه بدلا عن الوظائف والخطط السياسية التى عرضت عليه فى (دار الخلافة) باسطانبول لأنه كان يقدر مسؤوليته كوطنى وكمثقف ملتزم.

وعند عودة (الفريق حسين) إلى تونس عهد إليه بعدة مسؤوليات خطيرة في الدولة منها: (نظارة الداخلية). ثم كلف بـ (نظارة المعارف)، وعين فيما بعد على رأس (نظارة التجارة)، ثم لقب بـ (وزير الاستشارة) عام ١٢٩٠هـ (١٨٧٣م) وبعدها تكتل مع جماعة المصلحين بزعامة الوزير خير الدين في (قضية محمود بن عياد).. وهنا كانت مواقفه الوطنية الشجاعة؛ التي أبرزته كمصلح تونسي طالما تألم لأوضاع البلاد ولما كان يجري فيها من فساد مما جعل الشعب يثور ضد كل أوضاعها؛ فكانت ثورة (على بن غذاهم) في سنة ١٨٦٤م [١٢] وعند قيام هذه الثورة استعفى من مناصبه وخرج من البلاد.

- نزعته الإصلاحية:

نشأ(الفريق حسين) منذ فجر شبابه نشأة دينية، ومنذ ظهوره على المسرح السياسي كان مأخوذا بالنزعة الإصلاحية، وتستطيع أن تستشف هذا حتى من حياته الخاصة التي التزم فيها بالتقشف فلم يبحث عن قصر فاخر يشيده كما فعل الوزيران : مصطفى بن اسماعيل ومصطفى خزندار في أيامهما؛ ذلك أنه انقطع لخدمة الصالح العام فلم يتزوج، وكانت سكناه في ثكنات الجند مع أعوانه الجنود، ثم لما عهد إليه برئاسة بلدية العاصمة اتخذ في مقر البلدية بيتا صغيرا سكن فيه.

ويذكر محمد بيرم الخامس أنه «كانت للوزير مصطفى بن اسماعيل ضغائن على الفقيد كما كانت بينه وبين قنصل فرنسا في تونس «روستان» مشاحنات لتباين أفكارهما ومقاصدهما؛ لذلك عزله من وظائفه» [١٣].

ومما يذكر عن (الفريق حسين) أنه كان شديد الغيرة على المصلحة الوطنية كما كان يتألم لأعمال المخربين للاقتصاد.. وما أكثرهم وقتئذ!

أن أولئك المتلهفين على الثروة من أى طريق؛ هم الذين ابتزوا جانبا هاما من الثروة، ثم التجأوا إلى البلاد الأجنبية عائشين فى هناء، وما فكروا قط فى أن ينالهم العقاب من أولى الأمر؛ (ليقينهم بقلة الكفاءة فى الرجال الذين بيدهم مقاليد الأمور؛ من أجل هذا كان المترجم من الرجال المدركين لمعنى المسؤولية الحريصين على أن لا ينجو من المسؤولية أمام مصلحة الوطن أى مقصر فيها. وقد ظهر تكتل هؤلاء الرجال لأول مرة فى قضية (محمود بن عياد بزعامة الوزير خير الدين؛ فكان الوزير حسين من المهتمين بأمر تلك النازلة الباذلين أقصى جهودهم فى أن تنتج للبلاد عوضا من مالها المسلوب، ولرجال الدولة درسا يفهمهم أن المعتدى وأن بعد مغلوب) (١٤).

وهكذا يتضح من هذه الفقرة أن (الفريق حسين) كان شديد التعلق بنزعة الإصلاح، وكثير الإدراك للمصلحة الوطنية ولمسؤوليته كمثقف، ولهذا الاعتبار وجه كل طاقاته لمعاضدة الوزير المصلح خير الدين باشا فوقف معه فى جميع الظروف الصعبة وصحبه فى رحلته إلى باريس لمخاصمة محمود بن عياد، ومكث مدة هناك ألف فى أثنائها عدة رسائل سياسية هامة أشهرها «حسم الالداد فى نازلة محمود بن عياد» التى طبعت بتونس سنة ١٨٩٢هـ - (١٨٧٥م) (١٥).

ومن غيرته الوطنية اهتمامه بقضية مماثلة هى قضية (نسيم شمامة) التى اشتهرت كثيرا فى حياته (١٦).

وفى نطاق توجهه الإصلاحى وأيام إشرافه على (نظارة التعليم) فى عهد خير الدين؛ اهتمامه باصلاح التعليم فى كل من (الصادقية) و (جامع الزيتونة) فكان الواسطة بين الوزير الأكبر وبين المدرسين وبذل فى هذا الصدد جهودا تذكر إلى هذا القوت بكل إكبار.

وتقديرا لخدماته الواضحة ولمنزعه فى الإصلاح وسمه (خير الدين باشا) ضمن الرجال الستة عند انشاء (نيشان العهد المرصع) فى شوال سنة ١٢٩١هـ (١٨٧٤م).

وأمام تشعب نازلة (نسيم بيشى شمامة) اضطر إلى البقاء بإيطاليا عدة سنوات : (١٨٥٧ ـ ١٨٨٧) مع التردد على تونس فى فترات متقطعة.

وتمضى الأيام ويعزل خير الدين باشا ويخلو الجو للوزير مصطفى ابن إسماعيل الذى كان عدوا لدودا له، وتتكاثر مفاسد ذوى الامتيازات المالية، ويحاط (الفريق حسين) بالمخاطر والمناورات من كل الجهات وأفضى الأمر فى النهاية إلى عزله من وظائفه وتجريده من نياشينه عام ١٨٨١م وظل مقيما بايطاليا إلى أن توفى بمدينة (فيرانزا) سنة ١٨٨٦م، وأوصى بأن تصرف ثروته على المجاريح والعجز من عساكر الخلافة العثمانية.

ورثاه المرحوم محمود قابادو قائلا:

يا نفس بشراك وافاك الحسين فلا ترين للدهر ألا المنظر الحسنا

وهكذا توارى هذا المصلح السياسى بعدما قدم خدمات جليلة لفائدة

وطنه، وساهم فى عملية إثبات الذات، وبلورة الشخصية الثقافية التونسية على أنه يمكن أن نلخص مذهبه الاصلاحى فى رأيى فيما يلى:

أولا : فتح الذهن البشرى بالعمل على حرية الفكر وحرية العقيدة.

ثانيا : دعوته إلى تعزيز الخلافة العثمانية؛ شأنه فى ذلك شأن الوزير خير الدين باشا ورفيقه محمد بيرم الخامس وغيرهما من رواد الإصلاح فى تونس.

ثالثا : تكتيل النخبة ضد ذوى الامتيازات المالية الخاصة والانقطاع لخدمة الوطن.

رابعا : دفع الشعب فى تيار اليقظة الفكرية حتى لا تحوم الأخطار الأوربية حوله فيفقد السيادة والنصير.

وعلى هذا التوهج الحر قصر (الجنرال حسين) حياته وأتيح له سواء فى منصب المسؤول أو فى غيره؛ ألا يتوقف؛ فقاوم المرتشين، والنصابين، وأصحاب الامتيازات، وربط فكره بفكر محمود قابادو وخير الدين باشا وبحركة المصلحين المسلمين وهدفه من وراء ذلك هو تعزيز الأحرار، ومقاومة الانحراف والخيانة، ونصرة المثل والقيم.

الهوامش

١ - (الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال أفريقيا) لأنور الجندى طـ القاهرة ١٩٧٥ ص ٢٠ .

٢ - يرى المؤرخ : (شارل اندرى جوليان) فى كتابه (المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسى) أن الأستاذ محمد عبده استنبط مذهبه الإصلاحى فى تونس أثناء اقامته الأولى بها (٦ ديسمبر ١٨٨٤ - ٤ جانفى ١٨٨٥) بعد المحادثات التى اجراها مع الزيتونيين المتفتحين وأنه أقام بها مرة ثانية (من ٩ إلى ٢٤ سبتمبر ١٩٠٣) لكنه فى هذه المرة كان أقل احترازا بسبب تطور الوضع السياسى بعد مرور عشرين عاما على انتصاب الحماية - راجع ص ٤٨ و ٥١ من هذا الكتاب الذى عربه كل من الاستاذين : محمد مزالى والبشير بن سلامه طـ تونس ١٩٧٢ .

٣ - (تاريخ تونس) لمحمد الهادى الشريف - تعريب : محمد الشاوش ومحمد عجينة طـ تونس ١٩٨٠ ص ٩٦ - ٩٧ .

٤ - (أركان النهضة الأدبية بتونس) : محمد الفاضل ابن عاشور طـ تونس ص ٨ .

٥ - (الحركة الأدبية والفكرية فى تونس) لنفس المؤلف طـ القاهرة ١٩٥٥ ص ١٦ .

٦- سالم بوحاجب : (١٨٢٨ - ١٨٢٤) من رجال الاصلاح التونسيين وامتد كفاحه إلى عدة واجهات وقد كان شاعرا وخطيبا وهو الذى حرر كتاب (أقوام المسالك) لخير الدين باشا(؟)

٧ - محمد بيرم الخامس : (١٨٤٠ - ١٨٨٩) وهو مصلح مجدد أصدر جريدة (الإعلام) بالإسكندرية فى سنة ١٨٨٤ وأهم آثاره «صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار» فى خمسة أجزاء - انظر دراستنا عنه فى كتابنا (رواد الاصلاح) صفحات : (٤٠ - ٦٠) .

٨ ـ (الحركة الأدبية والفكرية فى تونس) ص ١٤ .

٩ ـ تراجم الإعلام : محمد الفاضل ابن عاشور طـ تونس ١٩٧٠ ص ٢٤ .

١٠ ـ نفس المصدر ص ٢٥ .

١١ ـ راجع : جريدة (الاعلام) س ٣ ع ١٤ الخميس ٢٣ شوال ١٣٠٤ : (١٤ جويلية ١٨٨٧) تحت عنوان : (ترجمة الجنرال حسين) .

١٢ ـ راجع (تونس عبر التاريخ) : أحمد عامر طـ تونس ١٩٦٠ ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

١٣ ـ جريدة «الإعلام» ع ١٤ (يوليو ١٨٨٧) .

١٤ ـ (تراجم الإعلام) ص ٢٦ ـ ٢٧ .

١٥ ـ محمود بن عياد من أبرز رجال الصادق باى اهتم بجمع ضرائب الدولة طيلة عشرين سنة واستطاع أن يملك ثروة طائلة ضرب العامة بها المثل فقالوا : (السما للرب، والأرض لابن عياد) .. هرب ابن عياد في ذلك الوقت ثمانين مليونا إلى باريس والتحق بها متظاهرا بأنه مسافر قصد التداوى .. راجع (تونس عبر التاريخ) لأحمد عامر ص ٢٧٢ .

١٦ ـ نسيم شمامة : إسرائيلى وهو القابض العام للدولة التونسية .

خيرالدين التونسى

١٨٢٠ـ١٨٨٩م

كان من رأيه أنه لابد من العمل بالنظام الديمقراطى الذى يحد من سلطة الحاكمين، ومن التمسك بالحرية والطموح، وأن قادة العالم الاسلامى هم رجال الدين والسياسة وأنهم منقسمون غير متعاونين ولا متلاقين فى وجهات النظر.. إنه يرى أن أنظمة الدين الاساسية يجب أن تراعى، أما الامور غير المنصوص عليها وتقتضيها المصلحة العامة فيجب أن نعمل فيها العقل ونأخذ النافع منها، فالجهل هو الذى يحمل المسلمين على التمسك بها هو بال بل يحمل الرجعيين والمستبدين على التمادى فى قمع حركات الاصلاح لكى يحافظوا على منافعهم الذاتية ولكى لا تسلب منهم مطامعهم الشخصية.

إنه أبرز من دعوا الى مقاومة الجهل والأخذ بأسباب المعرفة، وهو يرى أن نهضة الغرب كانت نتيجة لمعارفهم، لذا وجب أن نعتبر أن

المعرفة أساس من أسس بناء المجتمعات، وعامل قوى هام لاجتثاث التخلف الفكرى والاقتصادى.

نشأ هذا الرائد فى بيت من بيوتات القسطنطينية وفى منزل «تحسين بك» نقيب الاشراف هناك...

كان محتارا فى طفولته وكثيرا ما يمتلكه الغضب حينما تبلغه بعض الأخبار عن هذه الطفولة المجهولة التى مكنت الغير من أن يتحدث عنه قائلا: «إن خير الدين عبد مملوك».

لقد تركت هذه الأخبار في نفسه التياعا وهما، وأخيرا تكشف له البحث عن مأساة أليمة ضاعفت من همومه وأحزانه.

أدرك هذا الطفل المملوك أنه ينتمى الى «قبيلة أباضة» ببلاد الشركس الكائنة بالجنوب الشرقى من جبال القوقاز، وأن والده توفى فى إحدى الوقائع العثمانية ضد روسيا، وقد أسر وهو طفل على اثر غارة أو فتنة فى سوق العبيد باسطانبول وكان من حظه أن تربى فى قصر «تحسين بك» ورافق ابنه الوحيد.. يلهو معه فى ساعات الفراغ.

إنها مأساة مفجعة عكرت من صفوه فأصبح فى يقظته حائرا، وفى نومه مهموما، وفى لهوه مشاكسا مضطربا، فلم ينسه النعيم الباذخ، ولا اللباس الباهر، ولا القصر المنيف الذى أقام فيه مع ابن نقيب الاشراف طفولته المجهولة.. فكل هذا الرخاء لم يلهه عن التفكير فى مأساته التى جعلته أسيرا ومحروما من حنان والديه.

وتمضى الايام وتفقد أسرة «تحسين بك» طفلها الوحيد وترى أنه لابد من التخفيف من ألم الذكرى على النفوس بإبعاد خير الدين، وفعلا تم

عرضه للبيع فاشتراه بعض من أوفدهم الباى أحمد باشا: (١٨٣٧ ـ ١٨٥٥م) لجلب الغلمان والسرارى.

قدوم خير الدين الى تونس:

وجىء بخير الدين الى تونس عام ١٨٣٧ وسنه ذاك سبع عشرة سنة، وبداية من ذلك التاريخ أصبح مملوكا لهذا الباى الذى دام حكمه من عام ١٨٣٧ الى ١٨٥٦م،

وأحس أحمد باشا بعلوهمة هذا السبى، وبأنفته، وسرعة خاطره، وبشجاعته، وهى صفات قل أن تجدها فى الشراكسة كما ذكر ذلك الناقد الاديب أحمد أمين: (١٨٨٦ ـ ١٩٥٤) فى صفحة ١٤٧ من كتابه: «زعماء الاصلاح فى العصر الحديث»، قلت أحس الباى بالخصال الخلقية لهذا المملوك الجديد فى قصره فقربه منه وأهتم بتربيته وتعليمه..

حفظ خير الدين القرآن كما تلقى مبادئ الدين والعربية، ثم إنه لم يشأ أن يكتفى بهذا القدر من التعلم بل انكب من جديد حسبما ذكره المؤرخ صاحب «صفوة الاعتبار»: «.. على تحصيل الفنون العسكرية والسياسية والتاريخ ومشاركة فى الفنون الشرعية حصلها بمجالسة أهلها ومطالعة الكتب، وتعلم اللسان الفرنساوى فكان فصيحا فى العربية، عارفا بالتركية.. شديد التوقير للشريعة والعلماء، محافظا على شعائر الدين...» (١٧).

تونس فى عهد خيرالدين:

كانت تونس حين قدم اليها خير الدين كبقية بلاد العالم العربى.. بلدا متخلفا سادته حضارة فقدت جوهرها ولم يبق إلا رسمها..

فالتعليم فيها أشبه شيء بما كان فى مصر قبيل عهد محمد على: (١٨٠١)، أما سكانها فمعظمهم كما ذكر أحمد أمين فى كتابه «زعماء الاصلاح فى العصر الحديث» : «بدو لا يعرفون من الاسلام الا الشهادتين ولا يصل اليهم شيء من علم الا فى بعض أماكن أنشأ فيها الصوفية زوايا تعلم الناس شيئا من الدين، وللجاليات الأجنبية من فرنسية وايطالية وانجليزية، مدارس تعلم أبناءها وقليلا من أبناء البلاد اللغات والجغرافية والتاريخ والحساب والجبر والهندسة فتخرج من هم أقدر على فهم الحياة، فإذا انغمسوا فيها تحولت مالية البلاد الى أيديهم...[١٨]، وأغلبهم يتعاطى فى الفلاحة بالطرق العتيقة، أما الصناعة فى تونس فمجالها ضعيف جدا، إذ لم يبق من مصانعها التى تبلغ ألفا غير ثلاثين أكثرها ينتج «الشاشية».

ونتيجة لهذا الضعف انهار الاقتصاد القومى باختلال الميزان التجارى فكثرت الواردات وقلت الصادرات، وتحكم الاجانب من ايطاليين وفرنسيين فى السوق وأمسكوا بزمامه.

وكانت إدارة البلاد فى فوضى، فالبايات وأذنابهم لاهم لهم الا جمع المال، وابتزازه بالقوة من أهله.

والملاحظ أن خير الدين باشا - الذى عاش بتونس فيما بين عام ١٨٣٧ وعام ١٨٧٧م - عاصر كلا من المشير أحمد باشا، ومحمد باى، ومحمد الصادق باى.

ومن حسنات الباى الاول اهتمامه بخير الدين، وحرصه على إدخال تنظيمات جديدة على جميع هياكل الادارة لحبه فى الاصلاح ولتأثره باستاذه الوزير مصطفى صاحب الطابع المتشبع بآراء ابن خلدون الاصلاحية، وأيضا تمشيا مع التعليمات الصادرة له من السلطان العثمانى «محمود الثانى: (١٨٠٨ - ١٨٣٩)، الذى أجبرته الظروف، وضغط أوروبا، وضعف دولته على إدخال تغييرات جذرية على أنظمة الحكم الامبراطورية العثمانية تقتبس من أنظمة أوربا فكتب إلى باى تونس أحمد باشا يدعوه الى الاسراع بادخال هذه التنظيمات على «أساس العدل والحرية [١٩]».

وعلى الرغم من اعتماد هذا الباى على كل من مصطفى خزنه دار المغربى الاصل.. الغريب الاطور، الولوع بالمغانم والسرقات والذى تولى الوزارة مدة خمسة وثلاثين عاما أثقل فيها كاهل الشعب بالمظالم والضرائب متظاهرا بالتدين له - وعلى محمود بن عياد اليد التى شاركت خزنه دار فى المظالم والاختلاسات - فإنه عمل كثيرا على الأخذ بأسباب التقدم خصوصاً بعد ظهور ملامح الاصلاح فى مصر منذ سنة ١٨١١ على يد محمد على أثر إطاحته بدولة المماليك [٢٠]

ولعل من أهم وأبرز أعمال هذا الباى ما يأتى:

(أ) تنظيمه للجيش.

(ب) تشجيعه للعلم وللثقافة.

(جـ) تأسيسه للمدرسة الحربية بباردو عام ١٢٥٦ هـ - ١٨٤٠م وقد أنشئت حسب عبارة ابن أبى الضياف: «لتعليم ما يلزم العسكر

النظامى من العلوم كالهندسة والمساحة والحساب وغيرها..[٢١]. وعهد للشاب خير الدين بالاشراف على هذه المؤسسة.

(د) تنظيمه للادارة على أسس حديثة بتحديد الاختصاص.

(هـ) مبادراته الجريئة فى الميدان المالى؛ حيث أدخل تحويرا عليه أعفى بمقتضى هذا الاصلاح التونسيين من المساهمة فى نفقات الجيش، وأبطل العمل بالاداء الذى كان يستخلص على أصحاب المواشى وقدره عشر ريالات سنويا؛ كانت تدفع على كل ماشية، كما أعفى هذا الباى أيضا الأهالى من إقامة الضيافات، وتقديم الهدايا بمناسبة تسمية عامل أو خليفة أو شيخ، وأسقط جميع الخطايا المالية التى أنشأها العمال.

(و) إبطاله لبيع الرقيق بالبلاد التونسية، وغلقه لسوق العبيد الذى يعرف اليوم باسم «سوق البركة» وذلك حسب الأمر الصادر عام ١٢٦٢ هـ - ١٨٤٥م.

(ز) تخصيص المرتبات الضخمة لرجالات الثقافة وانشاؤه لمكتبة جامع الزيتونة الاعظم.

(ح) تأسيسه لكثير من المدارس المختصة التى اهتمت بتخريج المهندسين وأهل الصناعة والفلاحة.

(ط) اهتمامه بخير الدين وتأهيله لتحمل المسؤوليات السياسية والادارية لشدة وثوقه به مما جعله فيما بعد (سنة ١٨٤٦) يسطصحبه معه فى رحلته الى باريس لزيارة ملك فرنسا: «لويس فيليب» بوصفه يومئذ «أمير آلاى» ومسؤول عن «مصرف الدارهم[٢٢]».

جهاده السياسى:

كانت أول فرصة جرب فيها خير الدين الميدان السياسى فى أخريات عهد المشير أحمد باشا باى بعد أن ألحقه بحاشيته، ورقاه الى «أمير لواء الخيالة» فى عام ١٢٦٦هـ - ١٨٤٩م، كما عهد اليه أثناء اندلاع حرب القرم (١٨٥٤) بالتوجه الى باريس لبيع مجوهرات يصرف ثمنها لمساعدة الامبراطورية العثمانية وفعلا: فزيادة على الاعانة الخربية التى أرسلت لهذه الحرب: (١٤,٠٠٠ جندى) - تمكن خير الدين من أن يبيع المجوهرات ثم «أرسل ثمنها وحاسب عليه. وقدره نحو مليونين من الفرنكات[٢٣]».

كما أناط الباى بعهدته مأمورية الدفاع عن الدولة التونسية فى قضية محمود بن عباد الذى فر بأمواله الى باريس بعد أن اغتصبها من الشعب بعلم من خزنة دار طيلة عشرين سنة، ثم التحق بها بحجة التداوى وهناك اعتنق الجنسية الفرنسية وقدم قضية للمحاكم الفرنسية ضد تونس مطالبا إياها بدفع ستين مليونا من الفرنكات ثمن مشتريات كان قد اشتراها لها، فأقام خير الدين فى باريس ثلاث سنوات «صرف فيها فاضل وقته فى المطالعات الاروباوية والتعرف بأعيان الرجال والتبصر بأحوال أسباب التمدن والتقدم، فكانت له مدرسة تحنك فيها..[٢٤]»، وقد انتهت هذه القضية بتحكيم لجنة ترأسها نابليون الثالث فقضت بحكم أعادت به لتونس مقدار ٢٤ مليون من الفرنكات وكان هذا كله نتيجة لوقوف هذا المصلح الجرىء، وحرصه فى أداء مأموريته وقد نشر فى هذه النازلة ١٨ مذكرة باللغة الفرنسية [٢٥].

واثر هذا الانتصار الباهر رقاه محمد باى: (١٨٥٥ ـ ١٨٥٩) فى جانفى عام ١٨٥٧ الى وزير للبحر خلفا لمحمود كاهية المتوفى.[٢٦]

وفى عام ١٨٦٠ عينه الباى محمد الصادق: كاهية لرئيس المجلس الأكبر ثم تدرج لرآسته فى عام ١٩٦١ بعد وفاة رئيسه مصطفى صاحب الطابع.

ولما أحس خير الدين بازدياد فساد الوضع السياسى فى البلاد ـ نتيجة سوء التصرف وكثرة السرقات، وأيقن أن «الصلاح من المحال» حسب عبارة صاحب «صفوة الاعتبار»؛ قدم استقالته[٢٧] من جميع وظائفه السياسية، وانعزل فى بستانه ليتأمل ويكتب، وقد استغرقت هذه الفترة سبع سنوات: (١٨٦٢ ـ ١٨٦٩) أمكنه فيها أن يحلل تطور المجتمعات، ويدرك أسباب تقدمها، ويغوص فى الأسباب التى ارتقت بها الشعوب، وقد ترك لنا حصيلة تأملاته وآرائه وأفكاره فى كتابه المعروف بـ «أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك»، ومع استمرار سياسة الاسراف تقع بلادنا فى عام ١٨٦٩ فى مأزق اقتصادى كبير نتيجة لشهوات الصادق باى: (١٨٥٩ـ ١٨٨٢) وسرقات مصطفى خزنه دار: (١٨٣٧ ـ ١٨٧٣) والانغماس فى عمليات الاقتراض من البنوك الأوربية بفائض ١٢ فى المائة فقد أصبح مجموع ديون البلاد ٣٩ مليونا من الفرنكات بددها كلها خزنه دار فى أقل من سنة مما جعله يفكر فى سن ضريبة جديدة عرفت بـ «ضريبة المجبى» فارتفع الاداء عن ذى قبل إذ أصبح ٧٢ ريالا عوض ٣٦ ريالا، وقد تسببت هذه المظلمة فى ثورة شعبية عارمة قادها على بن غذاهم: (١٨٦٤) هذا من جهة، ومن

جـهـة أخـرى فـحـتى الاراضى المزروعـة أصـبـحت مـحـدودة المسـاحـة فـبالمقـارنة بـين عـهـد المشـيـر الاول وبين عـهـد الصـادق باى نجـد أن الاراضى المزروعة فى عهد المشير الاول تقدر بميلون هكتـار، بينما فى عهد الصادق باى لا تتجاوز ستين ألف هكتار.

وأمـام استـفحـال هذه الأزمـة الاقـتصادية المهددة بـاحـتلال تونس - سيما وفرنسا سبق لها أن احتلت الجزائر فى عام ١٨٣٠ وأن شبحها بات قريبا من البلاد - أصدر محمد الصادق باى فى سبتمبر ١٨٦٩ المنشور التـالى القـاضى بتكليف خـيـر الدين باشـا برآسـة لجنة «الكومـسيـون المالى»... يقول الصادق باى فى هذا المنشور.

«أمـا بعـد فـإن الهـمـام الفـخم أمـيـر الامـراء الوزير ابننا خـيـر الدين انتخبناه لرآسة الكومسيون المالى، لما نعهده من صدقه، وجميل خلاله، التى نؤمل أن نرى آثار نفعها لدولتنا ومـتـجرها(...) وهو حـرى بمزيد الرعى والاحترام، وأن يقابل بكل إجلال وإعظام [٢٨].

فكانت وقفة هذا المصلح الشجاع فى «الكومسيون» وقفة بطولية رائدة تجلى فيها حبه لتونس، وإخلاصه لشعبها الفقير المستغل، وأمـام قـوة حـجج خـيـر الدين فـى هذا المجلس تمكنت تونس من تـسـديد فـوائض ديونهـا فى آجـال مـعـقولة ومناسـبـة.. ويتـعـرض ابن أبى الضـيـاف الى نجاح هذا المصلح فى هذه المهمة الصعبة قائلا: «... إن هذه البـلاد لها تيـمن بخـدمـة هذا الوزير المنصف خـيـر الدين الذى صـار رئيـسا بـهـذا الكومـسـيـون، وقـد أعـانهـا فى شـدائد، وأنقـذها بـنصـحـه من معضلات...[٢٩]».

وأمام نجاحه الباهر فى هذه الخطة كلفه الصادق باى فى عام ١٨٧١ بمهمة توثيق الصلة بين تونس والدولة العثمانية ووفق هذا الرائد فى هذه المهمة أيضا بحصوله على «فرمان» يوطد العلائق بين البلدين فجازاه الباى بضيعة «النفيضة»: (١٠٠,٠٠٠ هكتارا)، ثم فى أكتوبر ١٨٧٣ تم تعيينه وزيرا أكبر خلفا لخزنه دار الى جانب رآسته للكومسيون.

وأمام اشتداد الوشايات به استقال من جميع وظائفه الكبرى فضيق عليه الباى فى حرياته مما اضطره الى الهجرة، فسافر فى عام ١٨٧٨ الى الاستانه بدعوة من السلطان عبدالحميد الثانى: (١٨٧٦ - ١٩٠٩) الذى أعجب بآراء خير الدين المنشورة فى كتابه «أقوم المسالك[٣٠]» فأسرع بتعيينه رئيسا للجنة أقتصادية ومالية بعد رفضه لوزارة العدل، وأخيرا عينه صدرا أعظم للخلافة العثمانية: (١٨٧٨ - ١٨٧٩).

ورغم طيب المقام والحظوة التى وجدها فى تركيا، فإنه لم ينس تونس، ولم ينس أصدقاءه ولا ذكرياته فيها.. لقد أحبها من كل قلبه وكم أذرف من دموع حينما بلغه نبأ احتلالها من طرف الفرنسيين عام ١٨٨١م.

لقد كان هذا المصلح وفيا لهذه الارض إلى أن توفى بالاستانة عام ١٨٨٩ عن سن (٧٧عاما)؛ لأنه ترك فيها أعز الذكريات، والاصدقاء والمآثر، التى تشهد له بوطنيته وباخلاصه لهذه التربية.

وطنية خير الدين:

لقد قيل فى وطنية خير الدين ما قيل، فزعم البعض أنه مملوك عثمانى مذبذب التفكير، عمل مع بايات تونس ثم ابتعد عنهم ليخدم

السلطان عبدالحميد الثانى، وذهب بعضهم أنه عثمانى التفكير والاتجاه: إذ كان يرى أن القضية التونسية جزء لا يتجزأ من قضية الامبراطورية العثمانية، وانه لا نجاة لتونس إلا فى ظل الخلافة (٣١) العثمانية.. وهناك من المؤرخين من رأى رأيا خياليا فادعى أن خير الدين ممن مهدوا للاحتلال الفرنسى لما مكن إحدى الشركات الفرنسية من إقامة خط للسكة الحديدية يربط بين تونس المستقلة والقطر الجزائرى المحتل، وأيضا ببيعه فى عام ١٨٨٠ أملاكه العقارية وخاصة «هنشير النفيضة» للشركة الفرنسية بمراسيليا.

وأعتقد أن هذه الافتراضات والتهم لابد أن تستوقف نظر الباحث النزيه الذى يغار على تدوين التاريخ بأمانة وصدق، وأن يسلط عليها الاضواء الحقيقة فآنذاك يمكن أن نقول فى حق خير الدين ماله وما عليه.

وفى رأيى أن خير الدين قمة من قمم الوطنية فى تونس، وأن هذه التهم والاحتمالات لا تحط من شخصيته أو من وطنيته فى شيء.. إذ أنها اتهامات مغرضة قل أن نجا منها مصلح من المصلحين منذ القدم.. فهذه المزاعم لا يمكن أن نؤاخذ بها هذا الرجل المصلح.. إنه بطل مكافح جاهد مخلصا من أجل نصرة شعبنا فى وقت عمته المخاطر، وفى ظروف مليئة بالاشواك والمصاعب.. فعلى الرغم من المكائد والحساد والدسائس فأنه استطاع أن يمنح مواهبه وقدراته لهذا الشعب، وأن ينفذ فكرة الاصلاح فى الوطن الذى شب فيه وتعلق به الى آخر لحظة من حياته.. إن خير الدين لم يتخل عن قضايا شعبنا ولم يخرج

من بلاده الا حينما أدرك أنه لم يعد بامكانه أن يصبر أمام اشتداد الدسائس والمؤامرات.

أما في خصوص الادعاء الثاني فأعتقد أنه مردود أيضا؛ فخير الدين لما شعر بالاخطار التي تهدد تونس في أيامه أيضا رأى أنه لا نجاة ولا سلام لهذا الوطن إلا إذا ما ارتبط بتركيا ولم يكن هذا الاتجاه هو الذي يؤمن به وحده في البلاد فهذه جماعة من معاصريه أمثال سالم بوحاجب ومحمد السنوسي وبيرم الخامس لهم أيضا نفس الاحساس ونفس التفكير والاتجاه، بالاضافة الى نداءات الطبقات الشعبية الملحة في هذا الشأن... ألم ترتفع أصواتهم منادية باسم السلطان العثماني في كل من ثورتي ١٨٦٤ و ١٨٨١[٣٢].

وأما في خصوص منحه رخصة لإقامة خط حديدي بين تونس والجزائر فقد رد خير الدين نفسه على هذا الادعاء مبينا لخصومه انه أعطى الرخصة للشركة الفرنسية بعد أن عجزت الشركات الايطالية والانقليزية على القيام بهذا الامر، ثم إنه في شروطه لإنجاز هذا المشروع سبق له أن اشترط ألا يقع تجاوز الحدود التونسية.

والملاحظ أن خير الدين لم ينه هذه المسالة حينما كان مضطلعا بالحكم، انما الذى أنهاها وبت في القضية وأمضى في الرخصة - وبدون أن يستشير الباب العالي - هو الوزير مصطفى بن اسماعيل وذلك عام ١٨٨٠ بينما نجد خير الدين قد تخلى عن مناصبه السياسية عام ١٨٧٧.

وفي خصوص بيع أملاكه: (ثلاثة قصور بتونس، وهنشير النفيضة، وغابات زيتون، ودار بحمام الانف) فالثابت عنه أنه لم يفوت فيها لهذه

الشركة الا بعدما لاحظ عدم إقبال التونسيين عليها رغم خصم ١٠ فى المائة من الثمن المقترح زيادة على مالاحظه من محاولات من طرف مصطفى ابن اسماعيل لضم هذه الاملاك الى أملاكه الخاصة.

وعلى ضوء ما قدمنا من آراء؛ يتبين لنا أنه لم يعد هناك مجال للشك فى وطنية خير الدين ولا فى صدقه ونضاله الباسل من أجل شعبنا فمهما كان منزعه الفكرى، فهو قد أحب تونس، وتعلق بها، وضحى فى سبيلها بكل غال ونفيس.. إنه لم يتخل عن ذكرها فى «مذكراته» ولم ينس فيها أصدقاءه ولا ذكرياته، فقد كافح من أجل كرامة شعبنا وناضل فى سبيل تحقيق أهدافه فى الحرية، والعدل الاجتماعى، والتقدم، وأراد أن يزيل الحدود والحواجز بين هذا الشعب وبين بقية المسلمين فتمسك بالدفاع عن الخلافة العثمانية باعتبارها المنفذ الوحيد لتحقيق هذه الامنية لذلك رأيناه فى «مذكراته» ص ٣٨ يقول: «لقد كنت مؤمنا راسخ الايمان ان المملكة التونسية ينبغى أن تجد فى الروابط التى تربطها بالخلافة العثمانية أمنع حصن يصونها من أطماع الدولة الاروباوية المختلفة وعلى مر الزمن سواء أكنت مواطنا أم موظفا بسيطا أو وزيرا أكبر.

فإنى لم أنفك أؤيد حقوق تركيا على تونس وأنصح بايات تونس بإقرار الروابط مع الامبراطورية العثمانية وتوطيدها».

لقد كان على علم تام بحال الخلافة، لكنه لم ييأس، فالاصلاح ممكن والآراء التى أوردها فى مقدمة كتابه «أقوم المسالك» كافية لتجعل من «الخلافة» قوة عظيمة تجابه ما يعترض المسلمين فى مسيرتهم، وتجعل منهم خير أمة أخرجت للناس.

الحاكم المصلح:

تحمل خير الدين مسؤوليات سياسية وإدارية عديدة وهامة فى كل من تونس وتركيا وقد شعر فى كل من البلدين بأن الشعب بدأ يعلو أنينه ويوشك أن يفتضح أمره، فهناك محاولات الانفصال عن تركيا من بعض بايات تونس، كما أحس بأن الامة الاسلامية المنضوية تحت لواء الخلافة تعانى الضيق والحرمان والحكم المطلق واختلاسات الحكام، ونفور رجالات الدين من انسياسيين، كما شعر بقرب انهيار الخلافة وبتوغل عمليات الاقتراض فى معظم البلدان الاسلامية خاصة فى تونس ومصر وتركيا مما أدى بالأوربيين أن يطلقوا على عمليات الاقتراض «مال العمائم».. إنه أحس بكل هذا فأراد عند مباشرته لشؤون الحكم سواء فى تونس أو تركيا أن يسعى فى الاصلاح بتنفيذ آرائه فى مقدمة كتابه «أقوم المسالك».

ونحن لو حاولنا ضبط إصلاحات خير الدين عند مباشرته للحكم لوجدناها كثيرة وشاملة لجميع ميادين الحياة ودواليب الادارة فى كلا البلدين وإذا كان تعدادها جميعا غير ممكن فإنه بإمكاننا التعرض الى بعضها فيما يلى:

فمن إصلاحاته فى تونس: إنشاء مصنع بخارى لبناء السفن وإصلاحها، وتوسيعه للطرق وتنظيمها، وإبراز النظام النيابى (١٢٧٧ هـ ١٨٦٠م) وتنظيم الوزارات والادارات من قضاء وفلاحة وتجارة واقتصاد وتعليم وأحباس، وتخفيف من الضرائب؛ خاصة منها ما كان يدفع على الزيتون وعلى النخيل، وبجانب هذا سعى فى تحسين

مرتبات المدرسين بجامع الزيتونة، كما أحيا بعض الصناعات ودعم مركز تونس الدولى، وضبط ديون الاجانب، وحدد فائضها ودفوعاتها، ووضع حدا للتدخل الاجنبى الذى بدأ يتسرب مع اللجنة المالية، وأصلح المطبعة الرسمية، ثم أحدث البلديات، وأصلح نظام السجون بتخصيص بعضها للنساء وبعضها للرجال، كما أسس جمعية الاوقاف ووضع نظاما جمركيا قويا، وعمم التنوير والنظافة فى الشوارع، وشجع الادباء والعلماء على نشر إنتاجهم فى جريدة «الرائد التونسى» كما أحيا الاراضى المهملة وأعاد توزيعها على الفلاحين، كما أنشأ المدرسة الصادقية: (جانفى - فيفرى ١٨٧٥) وسن قانونها وأوقف عليها من الاوقاف ما بلغ دخله نحو مائتين وعشرين ألف فرنك فى السنة [٣٣].

وأنجز خير الدين باشا بعد يوم ٤ ديسمبر ١٨٧٨ الذى أصبح فيه رئيسا لوزراء الدولة العثمانية كثيرا من الاصلاحات لعلاج ما يمكن علاجه فى وضع تلك الدولة الموسومة «بالرجل المريض».. إنه واجه قضايا خطيرة وفى منتهى التعقيد، وحاول فى هذا الاتون المستعر أن يطفىء النار التى ستهلك بها الدولة، وبذل كل ما يستطيع من رأى وجهد فى سبيل «إنقاذ ما يمكن انقاذه» من مجد الخلافة وسؤددها، فكفل مصالح المسلمين فى بلغاريا، ووقع اتفاق معاهدة الهدنة بين تركيا وروسيا المعروفة بمعاهدة (سان ستيفانو) التى انعقدت فى برلين عام ١٨٧٨، كما سوى الخلاف بين تركيا والنمسا، وحل مشكلة الأرمن الخ...

ثمانية أشهر ظل فيها رئيس وزراء كان حملها يساوى ثمانين سنة، قضاها كلها وهو متحمس للاصلاح، محب لتحمل المسؤولية، عطوف

على الضعفاء، ولما نجحت دسائس الدساسين فباعدوا بينه وبين السلطان عبدالحميد الثانى (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) الذى كان يأمل أن يكون له عبدا مأمورا بينما نفس هذا المصلح تأبى هذا وتريد ان تبقى طليقة وحرة ـ أدرك خير الدين أنه قد تحطم وذهبت جهوده أدراج الرياح إذ الاصلاح مستحيل مع أمة فقيرة جاهلة سهلة الانقياد تشترى ضمائر أفرادها بالدنانير وتساق كالعبيد إلى حيث يأمر به الحكام والمستبدون، ألم يسبق له لما اعتزل وزارة البحرية فى تونس أن قال: «لقد حاولت أن أسير بالامور فى طريق العدالة والنزاهة والاخلاص فذهبت كل مساعى سدى، ولم أشأ أن أخدع وطنى الذى تبنانى بتمسكى بالمناصب»[٣٤].

خير الدين المفكر

كان خير الدين مفكرا سياسيا رائدا ورجلا حزا جريئا، صادق العقيدة، يدافع عن آرائه بالحجة، مغرما بالحرية، لا يهاب القول الصريح ولا يخشى مهاجمة المخادعين والوقوف فى وجه المستبدين والظالمين.

ومكنته هذه الخصال من إنجاز عديد المشاريع أيام تكليفه بمسؤوليات سياسية فى الدولة خاصة فيما بين عام ١٨٥٧ و ١٨٦١؛ كان كما وصفه الاستاذ محمد الفاضل ابن عاشور: «الزعيم المطلق لهذا الطور من حياة البلاد»[٣٥].

لكنه فيما بين عام ١٨٦٢ وعام ١٨٦٩ دخل فى عزلة تفكير تفرغ فيها لضبط معلوماته عن الحضارة الغربية، ورسم أفكاره، فى صورة (دعوة) وضح مناهجها فى مقدمة كتابه الشهير: «أقوم المسالك فى

معرفة أحوال الممالك» وقد ساعده على تسجيل هذه الدعوة رحلاته فى أوروبا وزياراته لتركيا واتصالاته برجال الاتحاد والترقى[٣٦].

وعلى الرغم من أن «مجلة خيرالدين» تذكر أن له تآليف كثيرة وممتعة محاولة بذلك إظهاره فى مرتبة الكتاب المشهورين فى عصره أمثال: محمد السنوسى، وأحمد بن أبى الضياف، وسالم بوحاجب وغيرهم حيث تقول: «.. أما تآليفه فإنها كثيرة العدد، غزيرة الفائدة، وإن لم يظهر منها فى حيز الطبع الا كتاب «أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك، وفصول سياسية تسترق الالباب نشرت «بالرائد التونسى» ليست مذيلة باسمة..[٣٧]» قلت بالرغم من كل هذا فأنى أشك فى كثرة تآليفه وحتى فى قدرته على التحرير السليم.

نعم، إنه امتاز بقوة أفكاره شأنه فى ذلك شأن جمال الدين الافغانى: (١٨٣٨ ـ ١٨٩٨) ومدحت باشا وغيرهما من رجالات الاصلاح فى المشرق العربى، وأعتقد أنه حتى فى كتابه «أقوم المسالك» قد أملى أفكاره على أحد أتباعه فسجلها له ونسبها اليه شأنه فى ذلك شأن الافغانى مع الامام محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) فى «العروة الوثقى» ولست بمتحامل عليه إن اعتقدت هذا الرأى إذ ماذا يقصد من عباراته هذه حينما تحدث عن هذا الكتاب قائلا: «مستعينين فى تهذيب الفاظه ببعض أبناء الوطن» وأرى أن الذى ساعده على إنجاز وتحرير كتابه هذا هو المرحوم سالم بوحاجب.

أهمية هذا الكتاب:

وكتاب «أقوم المسالك» الذى ظهر بتونس لاول مرة عام ١٨٦٧ من أهم الكتب التى حللت أوضاع العالم الاسلامى فى القرن التاسع عشر

وأهم شيء فيه هي مقدمته، التي اشتملت على آراء ثورية خطيرة بالنسبة الى تلك الفترة.. اذ كانت برنامجا إصلاحيا يهدف الى قلب أوضاع «الرجل المريض» على حد تعبير المستعمرين آنذاك.

وظهورها على ذلك الشكل وفي تلك الفترة بالذات ومن مفكر تونسي سبق له ان اضطلع بمسئوليات هامة في دولته يزيدها أهمية بالغة وقيمة عظيمة.

فالحاجة كانت تدعو بعد اشتعال نار الثورة سنة ١٢٨٠ هـ - ١٨٦٤م التي قضت بتعطيل النظام الدستوري وتوقيف عمل المجالس الى جانب ما أحاط بالبلاد من مجاعات وأوبئة دامت ست سنين: (١٨٦٤ - ١٨٧٠)؛ كل هذه الاسباب كانت تدعو الى ظهور رائد مصلح يلهم التائهين الذين تعثرت أقدامهم في الرذيلة مثل الباي محمد الصادق - الذي كان يأخذ ما يشتهي من ميزانية الدولة لينفق على شهواته - ومثل خزنه دار الذي ملأت مظالمه البلاد دون أن يكون هناك رأي عام يزلزله وينحييه.

إن خير الدين عكف عدة سنوات: (١٨٦٢ - ١٨٦٩) هذ المرة على مواجهة الواقع بقلمه فأراد ان يخط طرائق للمستقبل تزيح ما اعترى الامة من ضعف ووهن.. إن الحقيقة واضحة والحالة تنبئ بالانفجار في عام ١٨٦٧، أليست سنة ظهور هذا الكتاب كانت من أشد السنوات تأزما بتونس؟ فميزانية البلاد كانت مختلة، ومرض الكوليرة قد قضى على ثلثي الامة، وظهور سكة النحاس، ووفرة عمليات الاقتراض من أوروبا، وبروز ثورات شعبية قادها كل من محمد العادل باي، وعلي بن

غذاهم: (١٨١٥ ـ ١٨٦٧) أليس فى هذه الدواعى حافزا لهذا الوزير؛ ـ الذى تخلى عن مسؤولياته السياسية شأنه شأن الفريقين: حسين ورستم ـ لكى لا يخط طرائق المستقبل؟

ودعوة الاصلاح الذى تضمنها هذا الكتاب كانت تهدف الى قلب الاوضاع فى العالم الاسلامى.. وقد تأثر المؤلف فى اتجاهه هذا بعامل هام هو احتلال الفرنسيين للجزائر سنة ١٨٣٠ .. انه اتيح له وهو فى فجر شبابه أن يرى بداية بسط نفوذ فرنسا على تونس وسيطرتها فيما بعد على اقتصادها ومحاولاتها المتكررة ضد تطبيق تنظيماته عندما تولى الحكم مدة سبع سنوات: (١٨٦٠ ـ ١٩٦٧) وكان من بينها صدور أول دستور فى البلاد الاسلامية وهو القانون المعروف بعهد الامان: (١٨٥٧م).

على أنى أرى أن «عهد الامان» لا يمكن عده دستورا بالمعنى الكامل؛ إنه مجرد قانون بل مسرحية حاك خيوطها «ليون روش» قنصل فرنسا آنذاك.

وقد أثارت آراؤه فى «أقوم المسالك» اهتماما كبيرا فى الدوائر الاوروبية وترجم كتابه الى الفرنسية قبل مضى عام عن صدوره.

أضواء على أقوم المسالك:

ألف خير الدين التونسى كتابه هذا فيما بين عام ١٨٦٢ ـ وعام ١٨٦٩ وهى الفترة التى كان قد قضاها مستقيلا من وزارة الحربية، وهدفه من نشر هذا الكتاب شيئان هما:

١ـ حمل المسلمين على أخذ النواحى الايجابية التى أنبنت عليها الحضارة الغربية الحديثة مع التمسك بالدين.

٢ ـ تبصير وإغراء رجال السياسة والعلم بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة الى تحسين حال المسلمين لتنمية أسباب تقدمهم فى مختلف المجالات: (الزراعة، والتجارة، والصناعة، والتعليم، والصحة) وفى جميع وسائل التمدن بوجه عام.

ومن العلوم أن هذا الكتاب ـ الذى ظهر لاول مرة بتونس عام ١٢٨٤ هـ ـ ١٨٦٧م وقوبل بكثير من الاهتمام والتقريظ من أدباء ذلك العصر أمثال: أحمد بن أبى الضياف: (١٨٠٢ ـ ١٨٧٤) ومحمد الباجى المسعودى: (١٨١١ ـ ١٨٨٠) واحمد كريم: (١٨٢٦ ـ ١٨٩٧) ومحمود قابادو: (١٨١٢ ـ ١٨٧١)، وبيرم الخامس: (١٨٣٤ ـ ١٨٩٣)، ومحمد العربى زروق: (١٨٢٣ ـ ١٩٠٢)، ومصطفى رضوان: (١٨٢٦ ـ ١٩٠٥)، وسالم بو حاجب (١٨٢٧ ـ ١٩٢٧) ـ الخ... ـ قلت إن هذا الكتاب ينقسم الى قسمين: (أ) المقدمة، (ب) الكتاب.

ـ أهمية المقدمة: وقد صدرت فى طبعة جديدة مع التقاريظ بتونس عام ١٩٧٢ فى ٣٣١ صفحة بعناية الدكتور المنصف الشنوفى وقد حاول خير الدين فيهـا متأثرا بآراء عبدالرحمان بن خلدون: (١٣٣٢ـ ١٤٠٦م)؛ خاصة فيما يتصل بالتاريخ وبفلسفته ـ أن يجارى هذا العبقرى لكن مع وجود فوارق كثيرة: فى الاسلوب والافكار والموضوعات والاهداف؛ اذ أن هناك تباين واضح بين كتابى هذين العبقريين يتجلى خاصة فيما يلى:

١ - ابن خلدون كتب مقدمة كتاب تاريخه (العبر) بنفسه وقد استغرقت هى وقسم من هذا التاريخ الخالد أربع سنوات من حياته (١٣٧٥ - ١٣٧٨) قضاها عند بنى (عريف) فى قلعة ابن سلامة من القطر الجزائرى الشقيق.

بينما خير الدين أملى أفكاره الواردة فى المقدمة على أحد أتباعه وهو سالم بوحاجب.

٢ - إن ابن خلدون أعطى تجارب وملاحظات كثيرة استمدها من تلك التقلبات والمصائب والأحداث التى عاشها سواء بتونس أو بالجزائر أو فى المغرب وقد ساغ أفكاره بتعبير سائغ سهل لا تكلف فيه، بينما نجد خير الدين يقدم لنا أفكاره كلها تتصل بموضوعات الحكم، والانحطاط وطرق الاصلاح؛ استوحى معظمها من تأثره بما شاهده فى زياراته المتعددة لأقطار أوروبية كثيرة ومن مطالعاته للكتب الفرنسية خاصة.

إن دعوة خير الدين فى «المقدمة» ترمى الى إقناع رجال الدين والسياسة بضرورة الاقتباس من المدينة الحديثة، ونشر تلك المبادىء الاسلامية، خاصة فيما يتعلق بنوعى الحرية: الشخصية والسياسية، وتأسيس قوانين مع مسؤولية الوزراء أمام نظام نيابى يخلص الفرد من التبعية ومن الحكم المطلق.

ويدلنا على هذا: أن خير الدين قد تحدث فى هذه المقدمة التى تضم ١٥٢ صفحة عن موضوعات الاصلاح التى كان رجال الدين والحكم يعارضونها فى عهده[٣٨] . إنه حاول: «أن يقنعهم بالحجة والبرهان الدينى والعقلى بأن الاقتداء بأوروبا ليس كفرا وليس مضرا بالمسلمين...»

محتوى الكتاب:

ويمكنني أن أقسم كتاب: «أقوم المسالك» الى جزئين: يضم الاول ٣٥٠ صفحة[٣٩] تعرض فيها هذا المصلح الى ما شاهده من معالم ونظم في عشرين بلاد زارها فيما بين عام ١٨٥٣ و ١٨٦٧م معرفا خاصة بنظمها المالية والسياسية والادارية [٣٩].

أما الجزء الثاني فهو يحتوى على ١٠ صفحات خصصها للحديث عن جغرافية القارات الخمس من النواحي الطبيعية والسياسية الخ وهكذا فخير الدين التونسي عندما كلف من يدون أفكاره في كتاب كان يهدف الى وضع تصميم شامل وواقعي لتونس، سعى في إنجاز قسط وافر لما رجع للحكم من جديد فيما بين عام ١٨٦٩ وعام ١٨٧٧ سواء عندما عين رئيسا للكومسيون المالي (١٨٦١ - ١٨٦٩) أو حينما أصبح رئيسا للحكومة التونسية: (١٨٧٣ - ١٨٧٧).

أما أهم ما نادى به خير الدين في مقدمته من آراء فهو: وجوب إصلاح أنظمة الحكم، بالغاء الحكم المطلق شأنه في ذلك شأن ابن خلدون، كما نادى بمقاومة الدكتاتورية لأنها استبداد صريح؛ إذ العمل بالرأى الواحد مذموم، ومن رأيه أن أفضل الانظمة الاقتصادية هو النظام الرأسمالي؛ لذلك رأيناه يدعو الى اقامته بكل الحاح اذ متى توفرت الانظمة الرأسمالية نما الاقتصاد وازدهر العمران، كما ألح على إحداث شركات رأسمالية وبنوك، وإقامة معارض تجارية، ودعى أيضا إلى إيجاد تعليم مهني يضمن تعلم الحرف والصنائع، وهو يرى أيضا أن مبادئ الدين الاسلامي صالحة في كل زمان ولكل مكان إنها أعطت

أحسن النتائج فى الماضى ووفرت من الانجازات فى مدة ٨٠ سنة مالم يوفره الرومان فى ثمانية قرون.. يشير خير الدين لهذا كله فى مقدمته:

«وحكى ابن خلدون فى المقدمة أن المحمول الى بيت المال فى أيام الرشيد العباسى بلغ الى سبعة آلاف وخمسائة قنطار ذهبا وقدر ذلك تقريبا بـ : ألف واربعمائة مليون فرنك، وهذا دون ما يؤخذ من العين.

ويدلنا على القوة العسكرية الناتجة من عدل الشريعة واتحاد الامة ما تيسر لهم من الفتوحات التى يشهد بها المؤرخون من الفريقين ويصدقها العيان، ففى «قرة العيون[٤٠]» الذى ترجمه الشيخ أحمد الزرابى المصرى من اللغة الفرنسوية وعد من حسنات المطبعة المصرية، أن الاسلام فتح فى ظرف ثمانين سنة من الأقاليم أكثر مما فتحه الرومان فى ثمانية قرون...»[٤١].

كما ألح على توفير الحرية فى المجتمع باعتبارها منفذا هاما لاجتثاث التخلف، وسبيلا قويما من سبل الانطلاق، لكن لابد من تحديدها خشية ألا نحسن التصرف فيها فنقع فى المصائب والنكبات فاسمعه فى هذه الفترة معلنا رأيه فى هذا الشأن بكل وضوح:

«أما الشبهة الثانية فجوابها أن عامة غيرنا الذين بلغوا بالتنظيمات غاية التمدن، كانوا فى مبدأ الامر أسوأ حالا من عامتنا وإن كنا نسلم أن معارفنا الدنيوية الآن أقل مما أنتجته التنظيمات لبعض الامم الأروباوية، لكن عند التأمل يثبت عندنا أن الامة الاسلامية بمقتضى ما شهد به المنصفون من رجحان عقول أواسط عامتها على عقول غيرها من الامم، تقتدر أن تكتسب بما بقى لها من تمدنها الاصلى، وبعاداتها

التى لم تزل مأثورة لها عن أسلافها، ما يستقيم به حالها، ويتسع به فى التمدن مجالها، ويكون سيرها فى ذلك المجال أسرع من غيرها كائنا من كان، إذا أذكيت حريتها الكامنة بتنظيمات مضبوطة تسهل لها التداخل فى أمور السياسة، وذلك أن الحرية والهمة الانسانية اللتين هما منشأ كل صنع غريب غريزتان فى أهل الاسلام مستمدتان مما تكسبه شريعتهم من فنون التهذيب بخلاف غيرهم ممن لم تحصل لهم الغريزتان المذكورتان الا باجراء التنظيمات فى بلدانهم.

نعم من الواجب على مؤسس أصول الحرية السياسية اعتبار حال السكان ومقدار تقدمهم فى المعارف، ليعلم بذلك متى يسوغ إعطاء الحرية التامة، ومتى لا يسوغ، ومتى يعمم المقدار المعطى فى سائر السكان، ومتى يخص بمن قامت به شروط معتبرة، ثم توسيع دائرتها بحسب نمو أسباب التمدن شيئا فشيئا..(٤٢).

ومن ظواهر فلسفة خير الدين فى أنظمة الحكم تمسكه بنظام الخلافة، وعدم تصريحه أو تلميحه بأى شكل من أشكال الحكم الحديث. إنه فى رأيى يدعو الى تحقيق الحرية والعدل الاجتماعى لكن فى إطار الخلافة العثمانية، فهو اذن عثمانى التفكير يقبل أنظمة الحكم المقيدة بالقوانين لكن دون التفصى من سلطة الخليفة.. ولعل خير دليل نسوقه لاثبات رأينا فى هذه المسألة؛ الفقرة التى وجدناها فى «اتحاف» ابن أبى الضياف: ج ٤ ص ٢٤٩ يذكر هذا المؤرخ الذى عاصر خير الدين وعاش الكثير من أيامه الحالكات.. انه اجتمع مع خير الدين فى مجلس أشرف عليه الباى، التأم بمناسبة شرح القاعدة الاولى من قانون عهد الامان.. يروى صاحب «الاتحاف» ما شاهده فى هذا الاجتماع فيقول:

«ولما أتممنا شرح القاعدة الاولى، وهى قاعدة كل القواعد وقرأناها على الباى فى ذلك المجلس، بدرت من بعضهم بادرة يغفر الله له فيها وهى أن قال: «أى شيء بقي لسيدنا؟» ووافقه على ذلك بعض المتزلفين، والباى ساكت، لانه قبض بجنبيه لاجل نفع الرعية، حين هولت عليه الامر، كما تقدم، فوجمنا لهذه البادرة، فتكلم الوزير خير الدين، وكان أثبت القوم جنانا، وإن شئت قلت وأقواهم ايمانا وقال له: «نعم، يبقى لسيدنا ما بقي للسلطان عبدالمجيد، وما بقي لسلطان فرنسا وسلطنة بريطانيا وغيرهم من السلاطين بالقانون».

وهكذا انطلقت هذه الدعوة الاصلاحية من هذا الفكر الوفاد الذى سعى فى المغرب العربى وفى المشرق الاسلامى الى تسطير نظم تتماشى مع روح الاسلام والمدنية الغربية؛ شأنه فى ذلك شأن أولئك المفكرين الذين استهواهم هذا المنهج وفى مقدمتهم رفاعه الطهطاوى فى مصر، واحمد خان فى الهند، ومدحت باشا فى تركيا.

ومن هذا الطريق انفتحت مجالات الاصلاح أمام علماء الزيتونة فمارسوا الاجتهاد، والفكر النفسى، والدعوة الاصلاحية؛ التى كانت أقوى نفوذا وأبعد أثرا.

فمع الدعوة الاصلاحية سارت مجموعات كثيرة من المثقفين أمثال سالم بوحاجب واحمد بن أبى الضياف ومحمد بيرم الخامس والعربى زروق وعلى باش حامبه وعبدالعزيز الثعالبى والخضر بن حسين والبشير صفر وغيرهم.

وبعد وفاة خير الدين ظلت هذه الحركة حية قوية يغذيها كتابه: «أقوم المسالك»، ومنجزاته الفكرية التى أحدثت تيارا إصلاحيا قويا مثل

انشاء الصادقية (١٢٩١ هـ - ١٨٧٤م) وتنظيم التعليم الزيتونى بمقتضى القانون الذى ضم ٦٧ فصلا والصادر عام ١٢٩٢ هـ - ١٨٧٦م، وتشجيع حياة الطباعة والصحافة والنشر، وانشاء المكتبة العبدلية.

فهذه الاثار الفكرية الاربعة هى التى صمدت أمام الانكماش والتغريب وحاولت أن تدفع الامة الى الاتجاه العربى الاسلامى المتمسك باقتباس الصالح من المدنية الغربية الحديثة.

كانت صيحة خير الدين، إحساسا بالخطر الذى كان يهدد تونس وبقية أجزاء المغرب العربى؛ لذلك تأكد لدينا أن هذا الاتجاه الاصلاحى الذى نادى به كان من أجل البحث عن سبل تحمى هذه الاقطار مما قد يلحقها من أضرار الغرب ومن قواه المادية.

وعلى الرغم مما قاساه هذا المصلح من محترفى السياسة، والعملاء والانتهازيين، ومن رجال الدين أيضا؛ فإنه استطاع أن يخطط مناهج إصلاح للمستقبل، وأن يمهد للمثقفين - الذين أتوا من بعده (سواء فى المغرب أو المشرق) - حياة عمادها مقاومة الاحتكارات وتحقيق الترابط الوطنى والاخاء الانسانى.

انه أقبل على العمل بلا انقطاع فى سبيل الاصلاح فكانت مواقفه تشبه مواقف مدحت باشا: (١٨٢٢ - ١٨٨٣) مع فارق وحيد هو أن مدحت كان أمهر منه فى تدبير الانقلابات حينما يعجز عن الاصلاح بينما خير الدين كان رصينا جدا... انه لا يهمل الواجبات ولا يفرط فى المبادىء، إنك تراه يصمد، ويتمسك بآرائه، فإن اصطدم تمهل وأنتظر الأحداث.

الهوامش

١٧ـ راجع: «صفوة الاعتبار» لمحمد بيرم الخامس ج ٢ ط١ (القاهرة ١٨٨٤).

١٨ـ زعماء الاصلاح فى العصر الحديث: ط بيروت ص ١٤٩.

١٩ـ اتحاف أهل الزمان، ج٤ ص ٣٧.

٢٠ـ راجع: «خير الدين باشا» للاستاذ المنجى الشملى ط تونس ١٩٦٨ ص ١٢.

٢١ـ اتحاف أهل الزمان، ج ٤ ص ٣٦ وما بعدها.

٢٢ـ نفس المصدر ج ٤ ص ٩٧.

٢٣ـ صفوة الاعتبار ج ٤ ص ٤٩.

٢٤ـ جريدة «الحاضر»: س ٣ ع ٨١(١١ فيفرى ١٨٩٠ : ترجمة خير الدين).

٢٥ـ أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك (المقدمة وتقاريظ المعاصرين) تحقيق الدكتور المنصف الشنوفى ط تونس ١٩٧٢ ص ٣٨.

٢٦ـ صفوة الاعتبار: جـ ٢ ص ٩، ٥٠.

٢٧ـ المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٦.

٢٨ـ اتحاف: جـ ٦ ص ١٢٢.

٢٩ـ نفس المصدر، جـ ٤ ص ١٣٥.

٣٠ـ جريدة الحاضرة س ٣ ع ٨١ (١١ فيفرى ١٨٩٠).

٣١ ـ مقدمة «أقوم المسالك» ط ٢ تونس ١٩٧٢ ص ٤٢ .

٣٢ ـ المرجع السابق ص ٤٥ .

٣٣ ـ مجلة خيرالدين: سـ ١ ع ١ ص ١٢ بتاريخ ١٩٠٦ .

٣٤ ـ زعماء الاصلاح ص ١٥٧ .

٣٥ ـ «الحركة الادبية والفكرية فى تونس» لمحمد الفاضل ابن عاشور ط القاهرة (١٩٥٥ ـ ١٩٥٦) ص ٢١ .

٣٦ ـ راجع: «الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال افريقيا» تأليف أنور الجندى ط القاهرة ١٩٦٥ ص ٣٧ .

٣٧ ـ مجلة خير الدين س ـ ١ عدد ١ (عام ١٩٠٦) .

٣٨ ـ الطبعة الثانية: تونس ١٩٧٢ عن الدار التونسية للنشر.

٣٩ ـ طبعة أولى سنة ١٨٦٧م.

٤٠ ـ الاسم الكامل للكتاب هو : قرة النفوس والعيون بسير ما توسط من القرون طبع بولاق: (١٢٦٢/ ١٨٥٤) .

٤١ ـ مقدمة «أقوم المسالك» لخير الدين التونسى ط ٢ ص ١١٩ .

٤٢ ـ نفس المرجع ص ١٥٩ .

محمد بيرم الخامس

١٨٤٠ ـ ١٨٨٩م

كان أن أقضى معه ساعات معدودة، فإذا بصحبتى له تمتد أياما وشهورا تعرفت فيها على ألوان من كتاباته وآيات من عظمته ووطنيته.

إنه شخصية ثورية رائدة هامت بالتجديد الفكرى، وتطلعت إلى الاخذ بأسباب النهضة والتقدم والاصلاح وعاشت متألمة حائرة نتيجة ما أصابها من كيد الحساد وأذى الساخرين.

إنها واجهت نظم الرجعية البائدة فى عنف وصرامة فى القرن التاسع عشر، وظلت تدفع مظالم المستبدين والجائرين فى اصرار دون أن تتوقف، فلم تهزمها الضربات ولا الشدائد، بل بقيت ثابتة تسير فى خط فكرى واحد هو حماية الشخصية العربية والذود عن مقوماتها من تاريخ ولغة ودين وقيم وأمجاد.

لقد عاش معظم أحداث عصره وتفاعل معها وارتفع بألوان الجهاد الشاق الذى خاض غماره إلى مرتبة المفكرين والرواد؛ أولئك من تفتحت على أيديهم المجالات الحية النابضة بالحرية والتجديد فى مختلف ميادين الفكر والصحافة والوطنية والاصلاح وقدموا إسهامات فى كتابة صفحات مشرقة فى تاريخنا الحديث كانت خير تعبير عن الجهاد الحر والنضال الشريف الخالد.

كان محمد بيرم الخامس أحد أحرار العالم الاسلامى الذين تطلعوا إلى عاصمة الخلافة الاسلامية يرقبون منها طلائع الانقاذ وألحوا فى يأس حتى جاءهم هاتف جمال الدين الافغانى من وراء البحار يهتف بنداء «العروة الوثقى» فانضموا اليه وأخلصوا لمبادئ ميثاق جمعيته السرية التى تأسست «بكلكوته» فى الهند عام ١٨٨٢[٤٣].

ولد محمد بيرم بتونس سنة ١٨٤٠ ونشأ هناك وتتلمذ على مشاهير أعلام الفكر فى الزيتونة أمثال: سالم بوحاجب ومصطفى بيرم وعلى العفيف والشاذلى بن صالح ومحمد الشاهد والطاهر ابن عاشور، شأنه فى ذلك شأن بقية أفراد أسرة «بيرم» منذ مجئ جدهم الاعلى عام ١٠٧٣ مع فرق الجيش العثمنى تحت قيادة «سنان باشا» قصد طرد الاسبان من تونس.

ومن المعلوم أن معظم أفراد هذه العائلة تولوا وظائف إدارية وعسكرية سامية فى الدولة مثل قيادة الجيش، والتدريس، ومشيخة الاسلام، والافتاء والقضاء، الذى كان أول من باشره منهم محمد بيرم الثانى فى بداية عام ١٢٠٦هـ-١٧٩١م.

ومنذ أيام تعلمه ظهرت عليه بوادر النضج الفكرى والميل إلى الاصلاح؛ من ذلك أنه اتخذ لنفسه حينما كان عمره سبع عشرة سنة - حسبما أخبرنا به ابنه مصطفى فى الجزء الخامس من «صفوة الاعتبار» - سجلا خاصا كان يسجل فيه كل ملحوظاته عن شؤون الحكم والادارة وقد تم جمع هذه الملحوظات فيما بعد ونشرها الامير محمد باشا ولاشك أن هذا العمل يدل دلالة واضحة على اهتمامه بالاصلاح وتعلقه به وشدة شغفه بالسياسة وشؤون الحكم منذ أيام تلمذته بالزيتونة.

وعند وفاة عمه شيخ الاسلام محمد بيرم الرابع؛ الذى كان من أنصار الحركة الاصلاحية فى المغرب العربى ومن أشد المتحمسين لافكار وآراء المصلح محمود قابادو: (١٨١٣-١٨٧١) بلغ عمر الفقيد الثالثة والعشرين فقرر الباى آنذاك توليته على مشيخة المدرسة العنقية بتونس: (٦ جمادى الاولى ١٢٧٨هـ - ١٨٦١م).

وأمام ما أحدثته دروسه من هزات فكرية فى صفوف الطلبة انتصب للتدريس بجامع الزيتونة الاعظم ،ولم يكن له فى التوجيه الفكرى والانتاج العلمى ما كان لصديقه ورفيقه الشيخ سالم بوحاجب لانصراف اهتمامه كاملا إلى السياسة والحياة العامة(٤٤).

رغب محمد بيرم الخامس أن ينفث فى تلاميذه روح النقمة على الاوضاع السياسية السائدة فى العالم الاسلامى حيث أصبحت بلدانه مسيرة من طرف الجهلة والمتزلفين والمختلسين.

كما كانت أحاديثه مع مريديه فرصة لاطلاعهم على مظالم محمد الصادق باى ومصطفى خزنه دار وغيرهما.. فكثيرا ما شاهده الناس

يندد بمكائدهما وببذخهما، واسرافهما داعيا المثقفين إلى التضحية، والصمود في وجه الظلم والجوز حتى ينجي الوطن من مفاسدهما ويتفجر فيه وعي أخلاقي يهتدي به الناس فيعم الخير وينتشر الرخاء والعدل.

وعلى درب مسيرة الاحرار من التونسيين الذين عملوا مع خير الدين التونسي (١٨٢٠- ١٨٨٩) وجه اهتمامه إلى ميادين الاصلاح الاجتماعي والديني والعمل على إحياء مجد الاجداد ففتح صدره واستعان بمجموعة من المثقفين الذين آمنوا بفكرة الاصلاح وضحوا في سبيله بكل غال نفيس.

وأثرت نشاطاته الكثيرة ومسؤولياته المتعددة في صحته مما جعله يكثر من الاسفار للتداوي وللتأمل وللقيام بمساع سياسية هامة خاصة ما كان منها بعد ١٨٧٨ حيث زار كلا من فرنسا وايطاليا وبريطانيا والنمسا.

وأخيرا- وبعد الجهود التي بذلها في التخفيف من آلامه وللنجاح في مهماته، وبعد الدسائس والمؤامرات التي كانت تحاك له في الخفاء مما زاد في تدهور صحته وسخطه على الاوضاع وتبرمه من الحياة- استقر رأيه على الهجرة إلى المشرق العربي فتمكن من تحرير ونشر مؤلفاته الشهيرة خاصة كتابه: «صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار» الذي ألف أجزاءه الاولى في الاستانة وطبعت أربعة أجزاء منه في المطبعة الاعلامية بالقاهرة عام ١٨٨٤ ثم تم طبع الجزء الخامس منه عام ١٨٩٣ بمطبعة المقتطف.

وفى الاسكندرية عام ١٨٨٤ أصدر جريدة «الاعلام» ثم أسندت له وزارة رياض باشا الثانية خطة القضاء فى محكمة مصر الابتدائية، كما عهد اليه بمسؤوليات عديدة وخطيرة بمصر، من ذلك أنه عين فى وزارة «نوبار باشا» لكى يدلى بآرائه فى القوانين الوضعية المعمول بها فى محاكم مصر الأهلية وهل هى تطابق قوانين الشريعة الاسلامية أم لا؟ كما كلف باعداد ملحوظات وتقارير عن أوضاع الاوقاف هناك وأسندت اليه أيضا مهمة تعميم المحاكم الاهلية فى جميع أنحاء مصر.

وهكذا قضى محمد بيرم الخامس عمره كله فى كل ما ينفع الناس والدين. يتنقل من مشروع إلى مشروع ومن نشاط إلى آخر مؤمنا بأن المنار الخالد الذى أقامه سيضئ سبل الامة العربية أبد الدهر.. إنه ظل كالطود الشامخ الذى لا تهزه الاعاصير ولا النكبات ولا الدسائس حتى فارقنا إلى دار الخلد عشية يوم الاربعاء ٢٥ ربيع الثانى ١٣٠٧هـ (١٨ديسمبر ١٨٨٩م) ودفن بالقاهرة قرب ضريح الامام الشافعى، ووجدت على قبره يوم زيارتى له فى صائفة عام ١٩٧١ هذه الابيات التى رثاه بها شاعرالعروبة الشهير حفنى ناصف (١٨٥٦-١٩١٩).

ياقبر أضنانا البكاء وتبسم

أدريت أن الفضل فيك مخيم

أعلمت أنك قد حويت محمدا

وتركت أكباد الورى تتضرم

هذا الذى كانت بدائع فكره

تملى البيان على اليراع فينظم

من عترة ثوت العلوم بدارهم

فهم لطلاب الهداية أنجم

أولاه مولاه مواهب فضله

والله يعطى من يشاء ويرحم

وأقام فى دار النعيم فأرخوا

فى جنة الفردوس أسكن بيرم

ثقافته :

استرعت شخصية محمد بيرم الخامس بعظمتها الفذة انتباه الجميع ولا تزال حتى اليوم بفضل ما وهبها الله من ذكاء وطموح وثقافة واسعة وقدرة على تحرير المقالات السياسية والعلمية والاجتماعية.

وعلى الرغم من كونه لا يحسن الا العربية وقليلا من الفرنسية فإن معارفه الشاملة مكنته من أن يكون مولعا بالادب والنقد والتاريخ والفلسفة والعلوم الشرعية حتى عده أحمد حسن الزيات فى كتابه «تاريخ الادب العربى» من نبغاء المغرب العربى وأساطين نهضته (٤٥) فى العصر الحديث على أن أبرز مظاهر ثقافته تتمثل فى الميدانين السياسى والادبى ويتجلى لنا هذا خاصة فى عمق مقالاته السياسية التى ظهرت فى «الرائد التونسى» وفى افتتاحياته بجريدته «الاعلام» التى كان يكتبها مرة تحت عنوان: «اختلاف الآراء» وأحيانا تحت عنوان:

«خلاصة الاحوال» والذى عالج [٤٦] فيها مواضيع ذات أهمية كبيرة مثل:

- أحداث السودان : بتاريخ ٦ أفرين ١٨٨٦ .
- الثروة : بتاريخ ١١ أفريل ١٨٨٦ .
- المحاكم المصرية: ٨ و١٥ جويلية ١٨٨٦ .
- رضى الخصمان وأبى القاضى: بتاريخ ٩ ديسمبر ١٨٨٦ .

أما أدبه فهو ذاتى وواقعى ويتمثل فى أشعاره الموزونة، وفى نثره المسجع، وأدبه المترجم.

وبما أننى لم ألمس فى أدبه المترجم أية قيمة أدبية أو فنية إذ يطغى على معظمه الكلفة والضعف فانى أرى فى شعره صورا زاهية الالوان، وفنا حيا صادرا عن النفس واصطبغ بها وتنوع بتنوع مظاهر الحياة وأغلبه تقليدى لم يخرج فيه عن معانى الاقدمين وأساليبهم ومعظمه فى الوطنية، والحكم، والرثاء، والمديح [٤٧] .

فتأمل مليا فى قصيدة «نداء» المنشور بجريدة «الجوائب»[٤٨] عام ١٨٧٦ أيام حرب تركيا مع اليونان وتتبع ترصيع ألفاظه وإيقاع أسجاعه، وقارن بين شاعريته وبين غيره من شعراء عصره، الذين لم يحفلوا باللفظ بقدر احتفائهم بالصور المبتكرة وبالخيال المجنح الطليق.. يقول بيرم فى الحث على التعاون والائتلاف :

يا أمة الإسلام صونوا عزكم

بتعاضد وتمدن وتنافس

يا أمة الإسلام أحيوا ذكركم

بتآلف وتودد وتآنس

يا أمة الإسلام نموا صيتكم

بمعارف وصنائع ومجالس

يا أمة الإسلام حوطوا أمركم

بتشاور وتدبر وحوارس

يا أمة الإسلام هبوا للفلا

ح ولا تضيعوا نجاحكم بتقاعس

يا أمة الإسلام عوا واستيقظوا

ان الهلاك مسارع للناعس

يا أمة الإسلام زيدوا ثروة

بتعاون ومصانع ومغارس

يا أمة الإسلام شيدوا مجدكم

بتناصر وتناصح وتجانس

يا أمة الإسلام شدوا عزمكم

فثباتكم بين البرايا ما نسى

وعلى العموم فثقافة رائدنا محمد بيرم في مجموعها ثقافة شاملة تعطي صورة للنزعة التحررية التي هام بها منذ الصغر وهي قابلة للتجدد والالتقاء مع الثقافات الاخرى ومن ميزاتها صمودها في وجه الازدراء بالقيم والتراث والشمائل الاسلامية.

آثاره :

ساهم محمد بيرم الخامس في النهضة الفكرية في عصره مساهمة جدية فقد كان رائدا له اصرار، وفيه صلابة جعل من أهدافه إقامة سد منيع يحمي الامة من التمزق والانهيار لذلك رأيناه يدعو جيله إلى اعتناق مبادئ الاصلاح والتمسك بالأصالة والتفتح نحو الغير لنستمد من تجاربه الاخلاقية السليمة إضافات إلى قيمنا وحضارتنا وعلى ضوء هذا الاختيار الهادف برزت آثاره الفكرية التالية:

١ ـ مختصر فن العروض.

٢ ـ التحقيق في مسألة الرقيق.

٣ ـ رسالة عقد الدرو المرجان في سلاطين آل عثمان.

٤ ـ تحفة الخواص في حل صيد بندقية الرصاص.

٥ ـ سكنى دار الحرب.

٦ ـ تجريد السنان على خطاب رينان.

٧ ـ صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار، ويقع في خمسة أجزاء اثنان ألفهما بتركيا قبل احتلال تونس وأتم الثالث هناك وأكمل بقية الكتاب وطبعه بمصر.

وأعتقد أن هذا الكتاب هو أهم أثر فكرى خلفه لنا هذا المفكر الشجاع؛ إذ فيه حقائق عن عصره وخفايا مجهولة عن الحالة بتونس وعن البلدان الأوروبية التى زارها.

ويقول محمد بيرم الخامس فى خطبة كتابه هذا موضحا الدواعى الاصلية لهذا التأليف: «أما بعد فإن الله جلت عظمته، اقتضت حكمته الباهرة أن ربط فى هاته الدار الاسباب بالمسببات خفية كانت أو ظاهرة، وأخفى مراده فى التكوين، فكان مدار تكاليف الشرع هو اعتبار الاسباب رحمة بالمؤمنين، وتفويض ما وراء ذلك إلى خالق المسبب يجرى على مقتضى تقديره فى الأزل، وما يدرك أسرار حكمته الا قليل من الكاملين، وكان مما عرض للعبد الحقير أن بليت بمرض أعى علاجه أطباء قطرنا الشهير، وأشير على بالسفر لأجل ذلك الغرض فاستخرت الله تعالى، واستشرت الاصدقاء لتحصيل ذلك الحق المفترض، فجبت بحارا وقفارا، ومدنا وأمصارا، على حساب ما يسره المقدور، وساعدت الوسائل على الوصول إلى مشاهدته من المعمورة، ورأيت بعينى البصر والبصيرة أمور عجيبة خطيرة، أحببت نظمها فى عجالة حفظا لها من الاهمال، وتطفلا على منح العلماء أولى الكمال، كل علم ليس فى القرطاس ضاع، وهى وإن كانت بالنسبة لمعارف الكاملين والفحول ليست مما يلتفت إليه أو يلاحظ بالقبول، لكنها على كل حال بضاعة من علم، تلاحظها بالأعضاء أعين أهل الحلم، فلعل الله بفضله يفيد بها أهل وطننا واخواننا المسلمين، ويهدينا إلى إحياء معالم ديننا المتين، وسميتها «صورة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار» معتمدا على المانع الجليل وهو حسبى ونعم الوكيل الخ..».

والملاحظ أن هذا الكتاب يشتمل على مقدمة ومقصد وخاتمه.

أما المقدمة فتضم ثلاثة أبواب وكلها فى موضوع السفر، والمقصد يضم ثلاثة عشر بابا وكلها تحكى مشاهداته فى البلدان التى زارها مثل إيطاليا وفرنسا والنمسا ورومانيا والحجاز وبريطانيا والجزائر ومالطة الخ... أما الخاتمة ففيها مجموعة من آراء المؤلف ودعوة حارة لاصلاح شأن الامة الاسلامية وتقويض كل فاسد من أوضاعها.

أما أهم الفصول الواردة فى أجزائه الخمسة فهى :

فى الجزء الاول :

خطبة الكتاب - تفصيل موضوع الكتاب - المقدمة وأبوابها - مبحث فى الاستدلال بكلام الفقهاء على تكوين الارض - مبحث فى الاستدلال بكلام الصوفية على تكوين الارض - مبحث فى تلقيح الثمار بالريح - مبحث فى طب العلوم الرياضية - مبحث فى الاستدلال على أن كون الليل والنهار من دوران الارض.

فى الجزء الثانى :

المطلب الرابع فى السياسة الداخلية من العائلة الحسينية بتونس - الوظائف السياسية العسكرية - بيان ما صنعه الوزير مصطفى خزنه دار ومحمود بن عياد من تحميل القطر مالا يطيق وذهاب بن عياد إلى فرنسا وأخذ الحماية منها - مآثر محمد باشا - ولاية الصادق باشا - وزارة خير الدين - أقسام الاهالى.

فى الجزء الثالث :

سفر المؤلف إلى إيطاليا ـ بيان هيأة هاته البلدة ـ كيفية ملابس أهلها ـ ترجمة الوزير حسين التونسى ـ لائحة فرنسا فى أسباب حملتها على تونس ـ لائحة الدولة العثمانية فى اثبات حقوقها ـ أسباب تغافل الدول على فرنسا.

فى الجزء الرابع :

سفر المؤلف إلى القطر الجزائرى ـ مطلب فى تاريخ الجزائر الجديد ـ مبدأ استيلاء فرنسا على الجزائر ـ وفاء الاهالى بالعهد عند انكسار الفرنسيين وتحريك الدسائس فى أهالى الجزائر.

فى الجزء الخامس:

فصل فى تاريخ الحجاز وفى ذكر العرب البائدة ـ بحث فى عمران الارض ـ أصول التشريع فى الاسلام ـ ذكر العرب المستعربة ـ ذكر العرب المخضرمين ـ مطلب فى عوائد وصفات أهالى الحجاز ـ مطلب فى التجارة بالحجاز ـ مطلب فى المملكة العثمانية ـ فصل فى مجمل تاريخ الدولة العثمانية.

ولم يقف جهاده الثقافى عند تأليف الكتب فحسب بل ساهم أيضا فى الصحافة بقلمه فكتب فى «الرائد التونسى»: (١٢٩٠هـ ـ ١٨٧٤) مقالات كثيرة أيد فيها عزل مصطفى خزنه دار، وآزر الوزير خير الدين باشا صاحب الاتجاه التقدمى فى البلاد، وتعتبر مقالاته السياسية أول مقالات ظهرت فى النثر السياسى فى البلاد؛ ذلك أن الاتجاه السياسى

لم تعرفه صحافة تونس قبل هذا التاريخ إذ معظم ما كان ينشر فيها يتناول النواحي الاخلاقية والاجتماعية والادبية.

كما أنشأ بالاسكندرية «جريدة الاعلام» فظهر عددها الاول بتاريخ (٢٥ ربيع الثانى ١٣٠٢هـ - ١٨٨٥م).

والملاحظ أن جريدة «الاعلام» هى جريدة علمية وسياسية صدرت فيما بين عام ١٨٨٥ وعام ١٨٨٩ وقد أصدر منها ٢٦٩ عددا كان أول ظهورها يومية ثم صدرت ثلاث مرات فى الاسبوع ثم أصبحت فيما بعد أسبوعية لما تولى صاحبها خطة القضاء فى محكمة القاهرة: (١٨٨٩/١/١٤)[٤٩].

واهتم رائدنا بجريدته لأنه كان يهوى الفن الصحفى، وكم تألم حينما اتهمها بعض الحساد بأنها تحث على الانتماء للاجنبى وهو أمر لم تتعرض له بالمرة وكل ما هنالك أن «الاعلام» كانت تحلل أوضاع العالم الغربى وتقدم نماذج من كفاح شعوبه فى جميع مجالات النهضة خاصة فى بلاد الانجليز وكانت توصى بالاستفادة من تلك التجارب [٥٠].

وبمرور الايام ازداد قراء هذه الجريدة فى الوطن العربى وبلغت مقاما رفيعا وشأنا عظيما حتى قال عنها الوزير خير الدين باشا أيام إقامته بتركيا: «انها لا تلبث أن تكون تايمس العرب»[٥١].

ورغم هذا لم يسلم محمد بيرم أيضا من الدسائس فى مصر؛ اذ سرعان ما اتهموا جريدته بأنها تقف ضد الخلافة العثمانية، وهذه

التهمة هي بدورها باطلة من الاساس، اذ لو نشرت «الاعلام» شيئا من هذه الافكار لمنعت من الصدور في مصر.

هذا هو كل ما عثرنا عليه من معلومات في خصوص آثاره على الرغم من أن جريدة «الوقائع المصرية» ذكرت عقب وفاته إنه قد ألف رسائل كثيرة في الاحاديث والاصول، والاحكام الشرعية والجغرافية، والتاريخ والسياسة، وغيرها وكلها تثبت غزارة مادته وسعة أفقه الفكري، لكن لم أعثر على شئ من هذا وقد تثبت الايام صدق «الوقائع المصرية» وتنشر تآليفه الاخرى (٥٢).

وهكذا فيمكن للباحث بعدما يطلع على ما كان نشره محمد بيرم الخامس سواء في «الرائد التونسي» أو في «الجواب» التركية، أو في «الوقائع المصرية» وخاصة افتتاحياته فيها أن يمس مدى اهتمامه بالاحوال السياسية لبلاده ولبقية بلدان العالم الاسلامي وحتى للحركات الفكرية والسياسية التي تأسست به.. صاغ هذا المصلح جميع أفكاره بلغة عربية سليمة وبأسلوب سهل سواء عندما تناول الموضوعات العلمية أو الوصفية أو حتى المقال السياسي.

وبيرم الخامس بهذا الاعتبار يمكنني أن أقول عنه، إنه المنشيء الاول لفن النثر الصحفي باختلاف أغراضه في تونس.. فقد تحدى القيود المتبعة في أساليب الكتاب في عصره فأضناه هذا العمل ولم يسلم من العثرات وتستطيع ان تلاحظ هذا جليا في تفكك بعض تراكيبه خاصة في افتتاحياته المنشورة في صحيفة «الاعلام».

المصلح الاجتماعى :

أولى محمد بيرم الخامس مسائل الاصلاح اهتماما بالغا وصرف همه إليه بالفكر والعمل معا وكان من رأيه أن وسائل الاصلاح تتمثل فى اصلاح التعليم وإقامة البنوك وتطبيق النظم البرلمانية، وفى محاربة دعاة الباطل والانتهازيين والمرتشين على حساب الشعب.

ولذلك عول على أن يتحدث إلى الناس فى هذا وأن يعمل مع رجاله فى هذا الشأن وأن يكتب فيه.

اغتنم هذا المصلح فرصة عزل مصطفى خزنه دار: (أكتوبر ١٨٧٣) وتولية خير الدين باشا مكانه فاندفع فى درب رواد النهضة العلمية لاصلاح العالم الاسلامى تلك الدعوة التى صدع بها فى تونس المصلح الشيخ محمود قابادو بعد عودته من اسطانبول عام ١٨٤١، والتى وجدت أيضا فى طلبة المدرسة العسكرية بباردو وفى الزيتونيين أبناء بررة بشروا بها وهتفوا لها طويلا.

كما أيد دعاة الاصلاح الدينى من أبناء الزيتونة وغيرهم، أولئك الذين ثاروا ضد مناهج التعليم المتبعة ونادوا بعدم اتباع ظواهر النصوص فى الشريعة وبمسايرة ركب الحضارة الزاحف أمثال: محمد بيرم الرابع وسالم بوحاجب والجنرال حسين والعربى زروق ومحمد السنوسى أنصار الفكرة الاصلاحية فى أيام خير الدين باشا.

إنه اتصل بمعظم أفراد هذه المجموعة وفى مقدمتهم سالم بوحاجب (١٨٢٨ ـ ١٩٢٤) فكان لا يتخلف عن دروسه فى الزيتونة فيما بين

عام ١٨٤٨ وعام ١٨٥٨ ومن المعجبين بأفكاره وآرائه التى تنطلق بها جريدة «الحاضرة» الصادرة عام ١٨٨٨ بإدارة السيد على بوشوشة (١٨٥٩ـ١٩١٧).

وآزر الاستاذ محمد بيرم الخامس الوزير خير الدين التونسى فى دعوته الاصلاحية حيث قاد حركة تأييد قام بها الشباب المثقف آنذاك ولاقت صدى عظيما فى عموم أنحاء البلاد.

ونتيجة لهذا التعلق بحركة الاصلاح رأينا خير الدين يفتح صدره لهذا الصديق المخلص الوفى فاستعان به فى معظم مشاريعه الاصلاحية التى أنشأها فى فترة اضطلاعه بمهام الوزارة الكبرى: (أكتوبر ١٨٧٣ـ جويلية ١٨٧٧)، اذ عينه ـ بعد تأسيسه للمدرسة الصادقية: (جانفى ـ فيفرى ١٨٧٥) ـ عضوا فى اللجنة التى رتبت نظامها وكان فى طليعة من ألحقوا أبناءهم بهذا المعهد الحديث(٥٣).

كما اختاره لما أعلن عن تأسيس ادارة الاوقاف العليا (١٨ مارس ١٨٧٣) ليرأس مجلسها الادارى، ثم سماه فيما بعد: (١٨٧٥) ناظرا عاما لمطبعة الحكومة، كما عهد إليه بتنظيم «المكتبة العبدلية» حيث شاءت إرادة الحكومة آنذاك أن تجعلها مكتبة عظمى للدولة.

واضطلع محمد بيرم بكل هذه المشروعات وبذل فى سبيل نجاحها من جهده الشئ الكثير مما جعل النفوس تطمئن اليه وتبارك مساعيه ونشاطاته.

وحانت الفرصة لمحمد بيرم الخامس من جديد بعد عودته من أوربا لكى يفيد مجتمعه بما اكتسبه من معرفة التنظيمات الحديثة المتبعة فى

أوروبا، فرأيناه من الداعين لاستقلال القضاء، وإلى الرجوع إلى النظم الدستورية المعطلة، ومن المندفعين لفكرة تنظيم المستشفيات، وقد باشر بنفسه إصلاح هياكل الصحة حيث أسس فرعا خاصا بالامراض العقلية تابع لمستشفى العاصمة تم فتحه يوم ١٠ فيفرى ١٨٧٩.

واتضح لمحمد بيرم الخامس بعد تحليله لأوضاع البلاد السياسية أنه لابد من إدخال تنظيمات على نظم الحكم فيها حتى تأمن من الفوضى وتستطيع أن تجابه الصعاب، وتحقق الاكتفاء الاقتصادى، وتدرأ عنها عوامل الوهن والتخلف لذلك اتجهت أنظاره إلى قضية سياسية هامة وهى «تسوية مسألة هنشير سيدى ثابت» فسافر من أجلها إلى فرنسا وسوى المسألة على أفضل الوجوه، كما كلف أيضا بالسفر مرة أخرى إلى باريس لاقناع السلطة الفرنسية بوجوب تغيير قنصلها «روسطان» بتونس الذى أثبتت الايام سوء نواياه وتدخله السافر لتعطيل سير الحياة الدستورية فى البلاد.

وفى خضم اضطلاعه بهذه المسؤولية الخطيرة جابه دسائس مصطفى ابن اسماعيل الذى كاتبه معلما بأن سر الرحلة هذه قد وقع اكتشافه، فلم يتحمل رائدنا هذا الانكار ولا هذه المؤامرات الدنيئة، وأسرع بتوجيه استقالته من جميع وظائفه.

وبالرغم من أن وزارة مصطفى بن اسماعيل لم تقبل هذه الاستقالة وأكدت له من جديد ثقتها فى شخصه، فإنه صمم على الرجوع إلى الوطن.. وعند حلوله (١٨٧٨) أيقن بسوء الوضع السياسى والاجتماعى فيه ففكر مليا وأخيرا استقر رأيه على الهجرة إلى المشرق والالتحاق

برجال الانقاذ الاول، الذين خرجوا من البلاد عقب عزل وزارة خير الدين.

وتعلل محمد بيرم لخروجه برغبته فى الحج خشية أن يمنع، وأدرك مناه. بعد أن طاف بعديد البلدان: (مالطة - الاسكندرية - مكة - بيروت).

وفى جميع هذه البلدان توثقت صلاته بأقطاب الاصلاح فتعرف على الشريف حسين وعلى مؤسس الدستور العثمانى مدحت باشا: (١٨٢٢-١٨٨٣) الذى التقى به فى بيروت وشاركه فى بعث «جمعية المقاصد الخيرية»، كما اتصل فى مصر بكل من الوزير رستم، وابراهيم السنوسى الفاسى وبسعد زغلول وأديب اسحاق وسليم نقاش وغيرهم ممن كانوا حول السيد جمال الدين الافغانى ومن المساهمين فى تنظيمه السياسى السرى: (الحزب الوطنى) قبل قرار النفى المتخذ ضده من طرف حكومة الخديوى توفيق: (١٨٧٩).

وإذا كان الاستاذ محمد بيرم لم يدرك السيد الافغانى فى مصر فإن هذا لم يحل بينه وبين الانخراط فى جمعيته السرية وهى «جمعية العروة الوثقى» التى تأسست بالهند عام ١٨٨٢.

وبعد هذه الجولة الموفقة فى مجال الاصلاح الذى شاء أن يصقل بها فكره، ويغذى فيها وجدانه بنفحات من نسيم الشرق الاسلامى وتياراته الاصلاحية المعاصرة، حط باستانبول أين التقى بالمصلح خير الدين ووصلت نشاطات هذا الرائد إلى أذن مصطفى بن اسماعيل بتونس

فخشى أن تفتضح دسائسه لدى السلطان عبدالحميد الثانى فبذل كل جهوده لطرده من الاستانة، لكن بمجرد ما أن علم السلطان بهذا الامر تداخل ومانع فى ذلك وأوصى بأن لا يخرج هذا الرجل من تركيا فإن كانت هناك قضية ضده فلم لا ترفع إلى محاكم استانبول؟ ولم يكتف السلطان بهذا الاجراء بل وخصص له أيضا منحة شهرية قدرها ٢٥ ليرة عثمانية وتواصلت مدة إقامته هناك: (١٨ شهرا).

ومن المعلوم ان دعوى ابن اسماعيل على رائدنا كانت تقوم على شيئين:

(أ) خروجه بدون جواز سفر شخصى ممضى من طرفه.

(ب) عدم تصفيته لحسابات الاوقاف قبل سفره.

ومن الصدق أن نفند هذه الدعوة من الاساس، فمحمد بيرم رخص له فى الخروج بعد مساعى نقيب الاشراف بتونس، وحسابات الاوقاف قد صفاها قبل سفره ونشرها فى صحيفة الدولة ومن شاء أن يراجع فليعد إلى «الرائد التونسى» الصادر فى تلك السنة: (رجب ١٢٩٦هـ - ١٨٧٨م) ثم هو أيضا قد أخذ براءة مؤرخة بيوم ٢٠ جوان ١٨٧٨ أمضاها كل من محمد بن الامين ومحمود بن سالم وأحمد الورتانى ومحمد الشاذلى السنوسى.

وفى إحدى جلساته اليومية مع خير الدين بعاصمة الخلافة الاسلامية بلغه احتلال تونس من طرف فرنسا: (١٢ ماى ١٨٨١) فتأثر لهذا المصاب الجلل وكلف مع خير الدين بتقديم تقرير إلى السلطان فى

هذا الشأن حسب وصية منه، وفعلا نفذ محمد بيرم الوصية وحررا تقريرا مفصلا؛ وضح فيه أهداف الغزو الفرنسي لوطنه، واستنهضه لرد كيد الجائرين، لكن ما كل يتمنى المرء يدركه «فالرجل المريض» بات على قاب قوسين من الانهيار والفناء وليس بامكانه أن يحمى حتى عقر داره، زيادة على ما يتكبده من خسائر فى حربه مع الروس.

والملاحظ أن محمد بيرم عند كتابته لهذا التقرير كانت الدموع تنهمر من عينيه والالم العصبى يقطع نياط قلبه.

ولما أدرك فوات الامور وأيقن باستقرار فرنسا في تونس، ارتحل إلى ايطاليا واتصل بعائلته من هناك وحملهم معه إلى تركيا التى قضى فيها مدة فى ضيافة الدولة ثم استأذن فى الخروج فرجع إلى ايطاليا حيث تقابل مع صديقه الجنرال حسين باشا وبعد أن زار كلا من برلين وباريس ولندن عاد إلى مصر وفيها واصل جهاده من جديد.

وهكذا كان منهج الاصلاح عند محمد بيرم الخامس إنه بحث فى حالة البلاد التونسية وما تستوجبه من وسائل علاج، وتعمق فى نظم الحكم الدولية لتقرير قواعد عامة تسير عليها المجتمعات الانسانية، وتعرف على تيارات الاصلاح فى بلاد الشرق، وارتباط بحركات الاصلاح الاقليمية مثل حركة رياض باشا فى مصر، وحركة مدحت باشا فى تركيا وحركة الافغانى فى افغانستان والهند، وسعى متواصل لحماية المسلم من الزيغ والبدع والاستغلال، وصهره فى أمة واعية قادرة على أن تتخلى الحدود لتبنى مجتمعنا حرا متطورا يعمه الرخاء والعدل وتسوده تعاليم الاسلام الحق.

وكانت خلاصة دعوته فى الاصلاح ترمى إلى:

(أ) الرجوع إلى مبادئ القرآن السامية.

(ب) تخليص الاسلام من البدع والاوهام.

(ج) توجيه الرأى العام الاسلامى إلى العلوم الحديثة باعتبارها مصدر قوة عند الغربيين.

(د) تجديد أساليب التعليم وبرامجه.

(هـ) ضبط خطة لمواجهة كل من يسعى فى مقاومة الاسلام والعربية والخلافة العثمانية.

(و) تحرير الدين من الجمود وفتح باب الاجتهاد.

وعلى الرغم من أنى آخذه على مدائحه للسلطان عبدالحميد واغتراره بالوزير مصطفى بن اسماعيل فانى أرى فيه وطنيا غيورا نادى بالأخذ من عظمة الماضى ويقظة الحاضر.

وقام بدوره القيادى الانسانى كرائد حر فى مجالات الفكر والثقافة والاصلاح.. توزعت جهوده أولا ثم تلاقت وسارت على خط واحد يرمى إلى تنقية الإسلام من الزيوف التى حولت المسلمين إلى الجمود وجعلتهم يتخلفون عن السير مع موكب النهضة الحديثة.

جمال الدين الأفغانى

١٨٣٩ـ١٨٩٧م

كان وطنيا حرا ومن نبغاء الشرق ومفكريه الذين اضطهدوا من طرف الاستعمار، ونالتهم مظالمه.. انه من العقول الشرقية الواسعة فقد كان له اطلاع شامل على ألوان من الثقافات الإنسانية وساعده على ذلك إتقانه لعديد من اللغات الانكليزية والفرنسية والروسية والتركية والفارسية والأفغانية والعربية.

وهو من أوائل الثوار الذين صاحوا فى سماء الشرق للمطالبة بالحكم النيابى، ومن المنادين بتثقيف الشعب وتهذيبه، وتنقية عقيدته الاسلامية من الخرافات والأوهام.

كان أهم غاية يسعى إليها هى أنهاض المسلمين وتوجيههم ضد حملات الغزو المختلفة التى شنها الاستعمار على المسلمين وتمثل بعضها فى احتلال الجزائر عام ١٨٣٠ وانتصاب الحكم الانجليزى بعدن

سنة ١٨٣٨ ، وفى تفجير نزاعات الطوائف العربية بلبنان من طرف الانجليز عام ١٨٦٠ ، وفى امتداد النفوذ الانجليزى إلى بلاد الافغان سنة ١٨٦٨ ثم فى الاحتلال الاجنبى لاوطان عربية أخرى كتونس (١٨٨١) ومصر: (١٨٨٢) الخ..

لقد عاش أشد أزمات العالم الاسلامى، وساح فى معظم القارات،وتعرف على العديد من الشعوب والبلدان، زار كلا من طهران وتركيا ومصر والحجاز والهند وباريس والنمسا ولندن وروسيا.. رأى موتا فى بعضها وحياة فى أخرى.. شاهد جهلا وكسلا فى جانب، وعلما ونشاطا فى جانب آخر.

دفعته وطنيته ذات يوم لكى يهاجم المسلمين الذين استسلموا لهجومات الغرب بعد مؤتمر برلين: (١٨٧٨م) فخاطبهم قائلا: «أنرضى ونحن المؤمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسكنة؟ أو أن يستبد فى ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا، ولا يرد مشربنا، ولا يحترم شريعتنا، ولا يرقب فينا ذمة؟ بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلى منا أوطاننا، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته...».

ولكنه لم يظفر بأى جواب.. أن الشرق ميت، والقوم نيام.. إلتفت بيمنة ثم يسرة وياهول ما رأى، رأى تيمورلنك المغول تتقمصه شخصية السلطان «عبدالحميد الثانى» و«بترو» الاسبانى تمثله ملكة الانجليز «فيكتوريا».

آلمتـه المظالم والقسـوة فـدخل سجـون «افـغانسـتـان» ثـم ترك بلاده وسطوة الاستعمار كانت هناك على أشدها: (١٨٦٩م) وحط فى الهند ولكن ترى ماذا شاهد؟ انه وجد نفس المستعمر فى انتظاره.. بادره بالسؤال:

- كم ستقضى هنا من يوم؟

.. وأجابه:

«لا أكثر من شهرين».

ولكن هل تركه منفردا فى هذه المدة؟ أبدا ملأ الهند كلها بالعيون والجواسيس حتى يسهل عليه معرفة زواره، ويتكشف على نشاطاته السياسية المريبة.

إنه آلمه تتقاطر عليه الجماهير من كل صوب، ويقبل عليه المثقفون والأعيان، وتتزاحم أمام مجالسه الحشود .. وكل النفوس تتلهف إلى الاستماع إلى خطيب الشرق، ومصلحة الثائر الجرئ وأخيرا خشى كثيرا من هذه اللقاءات المستمرة، ومن هذا الوعى الذى فجره هذا المصلح الشجاع فى معظم بلاد الشرق، فاستعجله فى مغادرة الهند.

وكادت تلك الألوف أن تفتك بمندوب الحكومة البريطانى لولا حنكة هذا البطل الثائر، الذى أعلن عند مغادرته البلاد قائلا: «إننى ما أوتيت دياركم لأخيف حكومة بريطانيا العظمى، ولا أنا على استعداد للشغب.. ولكن تخوفها من زائر أعزل مثلى وتفريقها المتظاهرين من زوارى وهم أضعف منى.. انما يسجل على حكومة بريطانيا وهن عزيمتها، وضعف

شوكتها، وضيق صدرها، وعدم أمنها من حكمها، وأنها فى حقيقة حكمها لهذه الاقطار الشاسعة أضعف بكثير من شعوبها[٥٤].

وتلقفت البلاد الاسلامية أخبار هذا الرائد الملهم وراحت جماهيرها تتساءل عنه: ترى من يكون هذا البطل؟. ومن هى أسرته؟ وكيف تعلم؟ ولماذا التجأ إلى الهند؟

وأخيرا بلغتها أنباؤه بعد طول جهد.. علمت أنه جمال الدين الافغانى من مواليد «أسعد اباد» من أعمال «كابل» عاصمة افغانستان وهو ينتمى إلى أسرة ذات نفوذ سياسى واداری تنحدر من أصول عربية حجازية وقد نشأ فى «كابل» منذ الثامنة من عمره عند عائلته، وفى هذه المدينة درس علوم الشريعة والعربية والعلوم العقلية من منطق وحكمة وفلسفة، ومواد رياضية من هندسة وحساب وجبر وفلك بالاضافة إلى نظريات الطب والتشريح وأنه اشترك فى مؤامرة سياسية فى عام ١٨٥٧ ناصر فيها الامير (محمد أعظم خان) الذى عينه فيما بعد وزير دولة؛ لكن الاحوال قد انقلبت عليه فيما بعد لما أعان الانجليز الامير (شير على) على (محمد اعظم خان).. ومن هنا نشأت العداوة بين الانجليز وجمال الدين مما اضطره إلى الارتحال إلى الهند عام: (١٢٨٥هـ - ١٨٦٨م) وفى هذه البلاد حاربه الانجليز وأحاطوه بالجواسيس ثم طلبوا منه مغادرة البلاد.

الافغانى فى مصر :

وشق هذا الثائر طريقه إلى مصر فأقام فيها فى الفترة الاولى اربعين يوما قال عنها تلميذه الاستاذ محمد عبده فى مذكراته فيما بعد: «تردد

فى اثنائها على الازهر وخالطه كثير من الطلبة السوريين وسألوه ان يقرأ شرح الاظهار(٥٥) فقرأه لهم فى بيته. (٥٦).

كما أقام فيها - بعد عودته من استانبول وتوليه هناك عضوية مجلس المعارف الاعلى - ثمانى سنين: (١٨٧١ - ١٨٩٧) لاقى فيها كل اكرام وتقدير من طرف رجالات مصر مثل رياض باشا وغيره، كما انتظمت بينه وبين الطلاب حلقات للمذاكرة والدراسة فى حى «خان الخليل» ببيته، وفى إحدى المقاهى القريبة من «مسرح الازبكية» وتعرف (بمقهى البوسته)، فكانت مجالس للتعلم والتثقيف مكنت خيرة شباب مصر آنذاك من التمسك بالفضيلة، ومن التعلق بالوطن، ومن الإسهام فى معركة التخطيط للمستقبل لمواجهة الصعاب والخطوب، وكان من بين الطلاب الذين واظبوا على هذه الدروس أديب اسحاق : (١٨٥٦ - ١٨٨٥)، ومحمود سامى البارودى: (١٨٣٨ - ١٩٠٤)، والامام محمد عبده: (١٨٤٩ - ١٩٠٥)، وسليم نقاش، وعلى مظهر الخ..

التف حول السيد جمال الدين الافغانى معظم الطلاب الثوريين الذين هاموا بحرية البحث والتفكير الشخصى فكانوا يوميا يلتقون به ليأخذوا عنه الحكمة، والنحو، والمنطق، والتاريخ، والفلسفة، ونصر الحق، وكيفية تسيير الجماهير، وطرائق وأد الظلم، وسبل تقويض الحكم المطلق وانشاء حكومات دستورية.

إنها شعارات جديدة لم يألفوها من قبل عند شيوخ الازهر ولا عند غيرهم.

ومضى الافغانى فى نشاطه هذا غير مكترث بما ستحمله الأيام له فى مصر، أو لم يتهم بالزندقة بعد خطابه فى «دار الفنون» بالاستانة فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) وبسعى من حسن فهمى شيخ الاسلام آنذاك. إنه واجه كثيرا من الدسائس والمؤامرات ومع ذلك لم ييأس من فكرة الاصلاح بل استمر فى نضاله لأنه كان مؤمنا بدوره القيادى لتثبيت سيادة الشعوب وإبراز قدراتها.

وواصل الافغانى ثورته على الاوضاع المتعفنة فى مصر، فترصدته الاسماع.. وأخيرا لم يعد بإمكان الخديوى توفيق باشا: (١٨٨٠ ـ ١٨٩٢) أن يتغاضى عن أقواله ونشاطاته، فاستدعاه إلى « قصر عابدين» ليؤنبه قائلا: «انى أحب كل المصريين، وان دروسكم وأقوالكم المهيجة ستؤدى بالشعب والبلاد فى تهلكة.. [٥٧].

فأجابه الافغانى بكل لطف: «إن الشعب المصرى فيه الخامل والجاهل والعاقل، واذا قبلتم نصحى وأسرعتم لإشراك الامة فى حكم البلاد فتأمرون بإجراء انتخاب نواب عن الامة تسن القوانين.. فإن ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم».

وخرج الافغانى من مقر الخديوى وهو أشد عزما وأقوى بأسا من ذى قبل.. انه قرر أن ينفذ كل أفكاره رغم كل ما سيلقاه فى مستقبله المجهول.. فكانت لقاءاته بأحرار مصر كلها فرصا للتوعية والتوجيه السياسى، كما كان لخطبه الثورية وقع كبير فى جميع الاوساط، خاصة لدى الطلبة والمثقفين.

أصبحت شجاعة هذا الرائد مضرب الامثال فى كل بيت، وكل الناس فى شوق إلى لقاءاته السياسية والفكرية.. ألم يهيأ لهم البذور لقيام حركة فكرية وإصلاحية شاملة؟.. ألم يؤسس من مريديه وأنصاره حزبًا سياسيا سريا سمى (الحزب الوطنى) وهو الذى قاد ونظم الثورة العربية؟

وما هى إلا أيام حتى أخذت ملامح حركته تبرز علينا، مما اضطر الحكومة أن تمنى شعبها بالمجلس النيابى، واهتز المصريون بهذه الوعود، وطال انتظارهم لها، وأخيرا لما انتابتهم الشكوك راحوا إلى رائد مصر الاول جمال الدين الافغانى يسألونه عن الكيفية التى ينبغى ان يقام عليها النظام النيابى المصرى المؤمل فخاطبهم قائلا: «ان القوة النيابية لاى أمة كانت، لايمكن ان تحوز المعنى الحقيقى الا اذا كانت منبثقة من نفس الشعب، وأى مجلس نيابى يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية فان حياة تلك القوة النيابية الموهومة ـ التى لا تستند إلى الشعب ـ موقوفة على إرادة من أحدثها (٥٨).

أحدث الافغانى فى مصر تغييرات جذرية فى مجالات التربية والادب، والسياسة، والبحث، فكانت طرائقه فى التدريس مثلا تختلف عن طرائق تلميذه الامام محمد عبده، فبينما كنا نرى هذا الاخير يبدأ دروسه بقراءة النصوص ثم يخصص جزءا من الوقت للشرح والاسئلة، فإن أستاذه لم يكن يسلك مسلكه، فقد كان يحدد موضوع درسه ثم يشرحه، وفى الختام تأتى قراءة النص.

وبالاضافة إلى هذا كله سعى فى تقوية الواقع الاجتماعى لتلاميذه من الدروس.. إنه جعلهم يستمدون من المنطق والفلسفة والتصوف معينا

لا ينضب لمواجهة حالات الحيرة والشك، لكى يتقدموا فى سيرهم نحو الحياة المثلى وفى الدرب الطويل الذى ينشده الاحرار ويلقى الضعفاء فيه نفعهم.

ووجد الشباب العربى فى دروس الافغانى الفلسفية والسياسية والاجتماعية مجالات رحبة.. انها هيأته للنظر إلى الحياة بمنظار الشمول، وهدته إلى الواقع الحى الخصب.

ويذكر المؤرخون ومنهم جرجى زيدان (١٨٦١ ـ ١٩١٤) فى كتابه «مشاهير الشرق» أن الافغانى لم يؤثر فى أى قطر عربى مثلما أثر بأفكاره فى مصر.. إن تأثيره فى هذا البلد كان قويا جدا، زرع فيه بذور الثورة، وأيقظ الخامل وحرك الخائف، وأرشد الجاهل، وألهب الحماس، وفجر كل ما فيه طاقة ليصنع مجتمعا نظيفا قوامه الصدق وركائزه وعى ثقافى، ودين متطور، وإخاء بين البشر.

واننا لنستطيع ان نلتمس آثار هذه الروح الجديدة التى هبت فى الشرق الاسلامى اذا ما رجعنا إلى الآثار الفكرية والمقالات الصحفية والفصول الدينية والادبية التى كتبها أحباؤه وتلاميذه منذ مطلع هذا القرن خاصة ما ظهر منها فى مجلات: «العروة الوثقى» و«المنار» و«السعادة العظمى» و«الفجر» و«الهداية الاسلامية» و«الازهر» و«لواء الاسلام» و«الشبان المسلمين» و«المجلة الزيتونية»... الخ.

ولعل من أجلى المظاهر التى برزت فيها ثورة الافغانى على الطغاة والحكومات؛ تلك الانتفاضة القوية التى حمل فيها أتباعه سلاحهم

وقاموا بثورتهم المجيدة عام ١٨٨٢ بقيادة أحمد عرابى (١٨٤١ - ١٩١١) ويكفى الافغانى فخرا وشرفا انه كان ملهم الثورات، وداعية سياسى قدير، لم يشأ أن يذعن لرجالات الحكم العاجزين على تطوير شعوبهم بل استنكر تصرفاتهم المخزية وأعلنها حربا عليهم.. خطب مرة فى الاسكندرية قبل خلع الخديوى اسماعيل: (٢٦ جوان ١٨٧٩) فقال: «أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الارض لتنبت ما تسد به الرمق وتقيم أود العيال، فلم لا تشق قلب ظالمك؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك؟».

وخاطب المصريين ذات مرة فنصحهم ببذل كل ما فى طاقاتهم لمنع تدخل الاجانب فى شؤونهم حتى لا يعرضوا أنفسهم إلى الاخطار، ويصبحوا طعمة سائغة لكل غالب مستغل قائلا: «لو كان فى عروقكم دم ينبض، وفى رؤوسكم أعصاب تتأثر فتبعث النخوة والحمية لما رضيتم بهذا الذل، ولما قعدتم على الرمضاء وأنتم تضحكون... تناوبتكم أيدى الغزاة من كل جنس، وأنتم كقطع الصخر الملقاة فى الفلاة، لا صوت لكم ولاحس[٥٩].

بهذه اللهجة النارية كان جمال الدين يخطب، وبمثل هذه العبارات كان يعبر ويوجه.. إنه صوت مفكر واع انطلق من عقاله ليملأ فضاء الشرق والغرب، وليسمعه كل الناس فى هذا الكون الفسيح الارجاء.

وكان من الطبيعى أن تثير هذه الاقوال ردود فعل قوية، وفى منتهى العنف خاصة من طرف الاجانب ومن المتزلفين ومن دعاة الدين الجامدين سيما ووضع البلاد الاقتصادى والسياسى بات منخرما فى

عـهـد الخـديوى اسمـاعـيل: (١٨٦٣ ـ ١٨٨٠) مما تسبب عنه فرض التدخل الأوروبى فى شؤون مـصـر بحـجـة حـمـاية المصـالح الثنائة: (مصالح فرنسا وانجلترا [٦٠].

وأدت حالة البلاد هذه إلى عزل الخديوى اسماعيل عن الحكم بعد ما أعلن عن إفلاس البلاد.

وطمح أحـرار مـصـر فى الخـديوى الجـديد: توفـيق باشـا: (١٨٨٠ ـ ١٨٩٢) سيما وقد سبق له أن طمأن الافغانى على الاستجابة لرغائب الامـة ان ارتقى إلى الحكم، ولكن الايام سرعان مـا كـشفت عن نواياه السيئة فخابت أمانيهم فيه لما أصدر قراره الجائر القاضى بطرد رائدهم الافـغـانى بحـجـة أنه رئيـس جـمـعـية سـرية تعـمل على إفسـاد الدين والدنيا [٦١].

عودته إلى الهند:

فـالتـجـأ هذا الرائد مرة أخـرى إلى الهـند وأقـام فـى مـدينة «حـيدر آباد الدكن» مـدة طويلة تفـرغ فـيهـا إلى تأليـف كتـابه: «الرد علـى الدهريين» باللغة الفارسية وقد نقله فيما بعد إلى العربية تلميذه الشيخ الامام مـحمد عبده.

والملاحظ أن مـحـتـوى هذا الكتـاب هـو رد على المذهـب الطبـيـعـى المسمى بمذهب «النيتشرية» الداعى إلى تقويض الاديان، وإباحة الفساد، وإزالة الألفـة الانسانيـة، وكم بذل الانجليز من جـهـود من أجل نشر أسس هذا المذهب فى المشرق الاسلامى خاصة فى بلاد الهند؟

وفى حين كان الافغانى يقاوم «النيشر ريين» فى الهند ويؤسس فى «كلكوته» جمعية «العروة الوثقى» عام ١٨٨٢ ، قامت ثورة أحمد عرابى فى مصر فخشيت حكومة الهند من نتائج هذه الثورة لا فى مصر فحسب بل وفى كامل الشرق الاسلامى، لذلك رأيناها تبادر باستدعاء هذا البطل الثورى وتجبره على الإقامة فى «كلكتا» تحت الرقابة المشددة .

وبانتهاء هذه الثورة (١٨٨٢) تم احتلال مصر من طرف الانجليز وآنذاك سمح له بالخروج من الهند والتوجه إلى حيث يريد باستثناء بلاد الشرق، ففكر مليا وأخيرا قرر أن يذهب إلى باريس ليستأنف جهاده السياسى من جديد، وفعلا حقق مبتغاه لما أقام بها ثلاثة أعوام كان فيها مثالا للنشاط والحزم والارادة الصلبة .. فمن ينسى وقفته الحازمة حينما هب مدافعا عن الاسلام وعن البلاد الشرقية بوجه عام؟ ومن لا يتذكر وقفته الخالدة فى عام ١٨٨٣ حينما حمل على مزاعم (ارنست رنان) فى جريدة «الديبا» الفرنسية بعد ما نشر فيها «رنان» محاضرته عن «الاسلام والعلم» ؟

كما أنه من ينسى أفكاره الثورية التى صاغها الامام محمد عبده ونشرها فى مجلة (العروة الوثقى) الصادرة فى باريس عام ١٨٨٤ ؟

ومن المعلوم أن أفكار الافغانى أثارت فى كل من المشرق الاسلامى ومغربه موجهة من السخط على الاستعمار الأوربى الغربى الذى قرر منذ مؤتمر برلين (١٨٧٨) تقسيم العالم الاسلامى والعربى وزج شعوب هذه الاقطار بالبلدان المحمية .

وأمام هذه الاثارة من طرف الشرقيين منع الاستعمار الغربى صدور هذه الجريدة بعد ما ظلت طيلة ثمانية أشهر لسان الحركات التحريرية للشعوب والصوت الصادق الاصيل المعبر عن أهدافها، وعن مطامحها واحتياجاتها، فصدر آخر عدد منها بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٨٨٤م.

ولم يقف نشاط الأفغانى السياسى عند هذا الحد فحسب، بل زار عدة بلدان أوربية كلندن وروسيا فناقش ساستها، وكتب عديد المقالات فى صحافتها.

وأنهى جمال الدين الافغانى رحلاته بقبوله السفر إلى الاستانة بدعوة من السلطان السفاح عبد الحميد الذى كان حريصا على أن يبقى هذا الرائد بجانبه ليتمكن من مراقبته عن كثب.

وتمضى الايام وتبلغ أنباء اغتيال شاه ايران إلى السلطان عبد الحميد فيفزع لهول الخبر، ويقرر التضييق على ضيفه الافغانى خشية أن يصيبه ما أصاب صديقه الشاه.

وظل الافغانى يعيش بين مظاهر خداعة ودسائس السلطان إلى أن توفى (باستانبول) صبيحة يوم ٩ مارس ١٨٩٧.

منهجه الإصلاحى:

إن حياة الافغانى كانت مرآة صادقة لفكره، هذا الفكر الذى تغلغلت فيه الروح الدينية، وصهره الوعى الاخلاقى، وتميز بشعور الازدراء بشهوات البدن ولذات الحس.

أما منهجه الاصلاحى فيتمثل فيما يلى:

١ ـ محاربة جميع ألوان الاستعمار الغربى المتكبر العنود.. إنه ندد به لأن كل أساليبه شيطانية أساسها المخادعة والاستغلال..

قال عنه ذات يوم فى معرض الحديث مع بعض مريديه: «إن هذا الاستعمار، لغة واصطلاحا، لا أراه الا من قبيل أسماء الاضداد، وهو أقرب إلى «الخراب» و«التخريب» وأدنى إلى «الاسترقاق» و«الاستعباد» منه إلى «العمار» و«العمران» و«الاستعمار» (٦٢).

٢ ـ دعوة رجال الدين إلى التفتح والعمل بالاجتهاد، اذ الاسلام دين متطور قادر على تحويل الامة الاسلامية من مرحلة الاستعباد والتخاذل إلى مرحلة الحرية والازدهار وهذا الدين قد سبق له أن صنع من قبائل مشتتة أمة حضارية لها قوة ومجد وسلطان عندما استخدم أهله الاجتهاد وأعملوا العقل فى شؤونهم.. إنه أنكر على من منع «الاجتهاد» فى الدين بحجة فقدان شروطه.. فالقرآن الكريم فى رأيه إنما أنزل «ليفهم» أى لكى تتدبر معانيه بالعقل، وتدرك أحكامه ومقاصده.. (٦٣).

٣ – التنديد بأخلاق بعض الساسة الشرقيين لما رأى فيهم من نفاق وجبن وتكالب على المنافع الذاتية.

٤ ـ الدعوة إلى الثورة ومهاجمة نظم الاقطاع فى الشرق الاسلامى وتمثلت هذه الدعوة خاصة فى نداء وجهه إلى كل من الهنود والمصريين والايرانيين، ألم يقل لهم فى «العروة الوثقى عام ١٨٨٣»

بعد أن أحتل الانجليز مصر وفى مقال عنوانه «فرصة يجب أن لا تضيع» ان دور الجماهير الشعبية فى مواجهة التحدى دور كبير، وأن حرب العصابات أهم من الحرب النظامية، وأنه ليس عيبا أن نطالب الشعب بالتصدى للعدوان إذ على «قبائل العرب فى مصر ومشائخها أن يتذكروا شهامتهم العربية وحميتهم الدينية ويقتدوا بالافغانيين لينقذوا بلادهم من أيدى أعدائهم الاجانب.. وليس من الفتنة أن ندعوم إلى طلب الحقوق والدفاع عن الدين والوطن كما يظن بعض المتطفلين على موائد السياسة [٦٤]..

٥ - تنبيه الشرقيين إلى خطر الاستعمار الثقافى الذى تفقد به الشعوب كل وسائل المقاومة والصمود وتظل عاجزة حقيرة سهلة المنال... إنه دعى إلى التمسك بآداب الشرق ودينه وتراثه ولغاته وإلى التباهى بكل ما تنتجه أقطاره من ذخائر وفنون وثقافة الخ.. يقول الافغانى فى هذا الشأن:

«ألا ليت الشرقيين يدركون أنه لا جامعة لقوم لا لسان لهم، ولا لسان لقوم لا تاريخ لهم، ولا تاريخ لقوم اذا لم يقم منهم أساطين يحمون ذخائر بلادهم ويحيون مآثر رجالهم [٦٥].

٦ - قيام «جامعة اسلامية» وجعلها من سبل مقاومة الطغيان والاحتكارات الاجنبية.. إنه إدراك منه إلى واقع الشعوب الاسلامية التى أوشكت أن تنهار تحت أقدام المستعمرين والمستغلين و«الجامعة الاسلامية» التى نادى بها الافغانى هى ليست الجامعة التى كان ينشدها أحمد خان: (١٨١٧ - ١٨٩٨) بين مسلمى الهند، كما أنها

ليست بجامعة الطاغية السلطان عبدالحميد الذى ظل قرابة الثلاثين سنة ينادى بها.

«فالجامعة الاسلامية» التى حرص الافغانى على إنشائها هى رابطة للمستقبل، ومناط لأهل الشرق ضد مطامع المستعمرين.

ودعوته فى هذا الشأن ليست بدعوة سياسية هدفها جعل المسؤوليات السياسية بيد شخص واحد..

إنها لون من ألوان التضامن والاتحاد بين أبناء أقطار المشرق الاسلامى الذين ينبغى عليهم جميعا أن يسيروا على هدى القرآن وتعاليمه المشرفة ومقاصده السامية.

وركائز هذه «الجامعة» تتمثل فيما يلى:

(أ) مواجهة ألوان الاستعمار الغربى والوقوف ضد دسائسه وألاعيبه.

(ب) منع التدخل الأوربى فى بقية اجزاء العالم الاسلامى خاصة فى فارس وأفغانستان.

(جـ) تحرير الاراضى الاسلامية المحتلة وفى مقدمتها أراضى مصر والهند.

(د) ثروة المسلمين يجب أن تكون لهم لا لسواهم.

والملاحظ أن هذا الفيلسوف الرائد لم يقصد إثارته لمسألة «الجامعة الشرقية» أن يشن حملة أو حربا على «القوميات المحلية» بل موقفه منها واضح وهو عدم معاداتها لما لها من تأثير على تطورها الفكرى والحضارى.

ومجمل القول في منهج الافغاني الاصلاحي أنه منهج ثوري طلائعي، فيه دعوة إلى الاصلاح وإلى التمرد على الاوضاع الفاسدة، وعلى الحكم الاستبدادي وإلى تنبيه المحكومين ليوحدوا صفوفهم، ويفتكوا حقوقهم، ويقاوموا الاستغلال والكبت والتمزق، وآنذاك يسهل انشاء دولة اسلامية تعيد للاسلام شأنه وللدين مجده.

الافغاني رائد اشتراكي :

يرى بعض المؤرخين أن في آراء الفيلسوف جمال الدين الافغاني بعض التناقضات خاصة في نظرته إلى السلطان عبدالحميد، وفي موقفه من الاشتراكية.

(أ) مواجهة ألوان الاستعمار الغربي والوقوف ضد دسائسه ففي خصوص المأخذ الاول أقول إن الافغاني قد خدع بما أظهره له السلطان عبدالحميد فظن أنه بامكانه إن اعتمد عليه أن يوسع في دائرة إصلاحه ويتمكن من إنشاء جامعة اسلامية تمثل منطقة هامة من أرض الاسلام هي تركيا وفارس والافغان، وفاته شئ هو أن عبدالحميد رجل سفاح ماكر، يمقت الاصلاح ويعدم كل من يسعى فيه، ودليلنا على ذلك ما ألحقه بمدحت باشا (١٨٢٢ - ١٨٨٣) من متاعب ودسائس ومناورات.

أما في خصوص موقفه من الاشتراكية والاشتراكيين فصحيح أنه هاجم الاشتراكية في فصل عنوانه: (مطلب في السوسيالست والكومنيست) ضمن كتابه: «الرد على الدهريين» الذي ألفه في الهند

عـام ١٨٨١ ضـد مـجـمـوعـة من الـهنود المسلمين شـاءوا أن ينحـوا فى التعليم والثقافة منحى أوروبيا وانساقوا للاستعمار فحلل فى هذا الفصل غاياتهم وأهدافهم البعيدة وجميعها ترمى إلى الإلحاد والكفر وإلى سفك الدماء.. كما أشار إلى رأيه فيها قائلا: «وإن هذه الطوائف اذا استفحل امرها وقوى ساعدها فى المجاهرة بأعمالها فقد تكون سببا فى انقراض النوع البشرى...» (٦٦).

فهل بعد هذا يجوز لنا أن نحكم على الافغانى بأنه كان عدوا للاشتراكية من خلال هذا الفصل فقط؟ لاشك أن الباحث النزيه تأبى نفسه ذلك ولا يحمل قلمه ليخط كلمة ضد هذا الفيلسوف الثورى الذى كان جهاده سجلا خصبا للفكر الناضج الحر، وللدعوة للاشتراكية الاصيلة.

إن موقف الافغانى من الاشتراكية لم يكن موقفا عدائيا بالمرة فحتى هذا الفصل الذى جاء فى كتابه: «الرد على الدهريين» فقد كتبه فى ظروف متعبة وقاسية.

وأى ظروف أقسى من ظروف عاشها كاتب حر رأى فيها الانجليز يغرى سكان الهند بنبذ الاديان؟ (٦٧).

أليس الواجب يدعو لكى يحمل هذا المفكر الرائد قلمه ويسدد سهامه لكل من يسعى فى الخروج عن الملل والاديان؟.

إن شخصية الافغانى عبر تاريخها الحافل الطويل كانت دائما ضد الاستغلال والاستبداد والظلم الاجتماعى.. إنها لون فريد من الفكر

الواعى الاصيل؛ الذى فجر ثورات وصنع أجيالا ثورية لا زالت باقية ومؤثرة وهادية حتى الآن..

فرحلاته العديدة، ومواقفه من الطبقية والإقطاع، وآراؤه فى المفهوم الرأسمالى، وفى التطبيق الاشتراكى وتعاطفه مع الكادحين ومع رواد الاسلام الاول الداعين إلى العدالة الاجتماعية كأبى ذر الغفارى وغيره، ثم حرصه على الإخاء البشرى، ومساعيه فى محاربة الاستغلال والحكم المطلق أليس فى كل هذا ما يؤكد إسهامات الافغانى فى تحديد الملامح الاساسية للفكرة الاشتراكية خاصة تجربة المسلمين الاوائل؟.

وهل يصح أن نقول عنه إنه قد عادى الاشتراكية، ومواقفه واضحة جلية خاصة فى «مسألة الثروة» و«القلة المالكة» الذى أشار اليها ذات مرة قائلا: «ما أقعد الهمم عن النهوض الا اولئك المترفون يحرصون على طيب فى المطعم، ولين فى المضجع، وتطاول فى البنيان.. أولئك صاروا فى أعناق المسلمين سلاسل وأغلالا؟!».

و«الدعوة إلى الاشتراكية» التى كان حدد ملامحها وأبعادها فيلسوفنا الحر هذا إنما هى حصيلة فكر عربى اسلامى وقد طبقت منذ ظهور الاسلام على يد الرسول عليه السلام ثم تعرضت للنكسة فى عهد عثمان (٦٤٤ - ٦٥٦م) إنه اشتراكى دون شك وعى فكره الاساس الايديولوجى للاشتراكية لكنه بعد الدرس العميق أيقن باخطار الصراعات التى قد تنشأ فى داخل المجتمعات، لذلك رأيناه ينبذ فكرة «حرب الطبقات» ويدعو إلى إقامة مجتمع الكفاية والعدل على منوال مجتمع «المدينة المنورة» الذى عمه الاخاء، وسادته روح اشتراكية فى الحكم، وانعدم فيه التفاضل والتذمر قبل أن يعرف العرب ويفتحوا بلدان مصر والشام والعراق.

ولم تقف دعوة الافغاني للاشتراكية عند هذا الحد فحسب، بل رأيناه يؤمن إيمانا لا جدال فيه بأنها ستسود العالم، لذلك لابد من أن نهئ لها الركائز. ومن أهمها طرائق العلم الصحيح وهو لا يقر أى شكل من أشكال التفاضل بين فئة وفئة ومواطن وآخر الا بالنفع من المسعى للمجموع، وليس بتاج أو نتاج، أو مال يدخره، أو كثرة خدم يستعبدها، أو جيوش يحشدها أو غير ذلك من عمل باطل ومجد زائل، وسيرة تبقى معرة لآخر الدهر (٦٨).

إذن فالافغاني رائد اشتراكي دون ريب، ساهم بعمله وفكره في الدعوة إلى تحقيق مجتمع الكفاية والعدل..

إنه عاش عزبا طول حياته ينفق معظم جرايته على أصحاب العيال سئل مرة من طرف مبعوث السلطان عبدالحميد لما استقبله في استانبول عام ١٨٩٢ «أين صناديقك؟»، فأجابه: ليس معى غير صناديق الثياب وصناديق الكتب، فقال له: أين هى؟، فأجابه. صناديق الكتب هنا «وأشار إلى صدره» وصناديق الثياب هنا «وأشار إلى جبته (٦٩).

هكذا عاش جمال الدين الافغاني محسنا للفقراء، مدافعا عن الفلاحين والعمال، وملهما قادة البلاد الاسلامية بأن المجد الحقيقى في إيجاد وعى اشتراكى يزيح الفروق ويخفف من حرمان البشر.

ألم يخاطب آنذاك شاه ايران بقوله: «الفلاح والعامل والصانع في المملكة، ياحضرة الشاه أنفع من عظمتك ومن أمرائك (٧٠).

هذه شخصية الافغاني الملهمة.. من خلال صراعها مع الحاكمين المستبدين، ومن ملامح نضالها الاشتراكي، وعبر آثارها الفكرية

ومواقفها الوطنية.. إنها صيحة هبت فى المشرق العربى فقفزت بالفكر، وحركت الاقلام، وزعزعت العروش، وألهمت الثوار ودفعتهم إلى ساحات الفدى كما إنها هى التى أحدثت هذه الهزة السياسية التى غيرت ما فى وطننا العربى اليوم.

ولا تلمنى أخى القارئ الكريم إن لم أجد لهذه الشخصية من يضاهيها فى تاريخنا الاسلامى سوى عبقرى واحد ولد بتونس سنة ١٣٣٢ وتوفى بمصر عام ١٤٠٦ وهو الرائد عبدالرحمان بن خلدون.

أجل إنى بحثت كثيرا فى موسوعات الحضارة الاسلامية والعربية فلم أعثر الا عن رائد وحيد تتقارب آراؤه واتجاهاته الاصلاحية وظروف حياته مع أبو الثورات جمال الدين الافغانى.

وفى رأيى أن وجه التشابه لم يكن لمحض الصدفة بل كان نتيجة لتفاعل نفسانى عميق، برزت ملامحه فى الهزة الفكرية التى أحدثها كل واحد عبر جهادهما الطويل الحافل بالانتصارات والمآسى.

فكلاهما اغترف من العلوم الاسلامية ما لذ له وطاب وتفوق على علماء عصره خاصة فى علم الاجتماع والفلسفة والتاريخ، ووجه اهتمامه إلى السياسة، وطمح فى مراكز النفوذ ليتمكن من الاصلاح وقاسى من الشيوخ الجامدين فإن قرأت فى كتب التاريخ أن ابى عرفة قد حسد ابن خلدون على إعجاب الناس به واقبال الطلاب على دروسه فاعلم ايضا أن الافغانى نفسه لحقته من الشيخ «عليش إهانات كثيرة منها أنه كان يرمى عليه عصاه كلما رأى الطلاب يدرسون عليه الفلسفة بالازهر.

كما كان كل منهما وجد عروضا من ذوى النفوذ لكى يستريح من المشاق: (ابن خلدون من بترو ملك اسبانيا والافغانى من السلطان عبد الحميد) ولكن إجابتهما كانت دائما بالرفض.

وكان كل من الرجلين قد عاش مأساة عصره وهام بالترحال والكتابة والتأليف ومات خارج وطنه وظل قبره غير معروف.

أفلا يصح بعد كل هذا أن نقول إن الافغانى يشبه ابن خلدون من عدة وجوه وانه يمثل التجسيد الذى لنضال الشرقيين والفكر الثورى بوجه عام؟.

الهوامش :

٤٣ ـ الحركة الادبية والفكرية في تونس ص٤٣.

٤٤ ـ أركان النهضة الادبية بتونس: محمد الفاضل ابن عاشور ط تونس ١٩٦١ ص٢٢.

٤٥ ـ راجع تاريخ الادب العربي: أحمد حسن الزيات ط١١ ـ مصر بدون تاريخ ص٤٢٠.

٤٦ ـ جريدة «الاعلام» ع ١٢٨ بتاريخ ١٨٨٦/٣/٢٨.

٤٧ ـ راجع نص: «الجرذ الملك» من كتاب محمد بيرم الخامس لزين العابدين السنوسي ص١٩ـ٢٠ط تونس ١٩٥٢.

٤٨ ـ «الجوائب»: جريدة أسبوعية سياسية صدرت في اسطانبول فيما بين عام ١٨٦٠ وعام ١٨٨٣ وصاحبها هو أحمد فارس الشدياق: (١٨٠٥ ـ ١٨٨٧) وقد انتشرت في جميع الاقطار العربية ونالت شهرة واسعة.

٤٩ ـ راجع «أدباء تونسيون» للمؤلف ط تونس ١٩٧٢ ص١٣٧.

٥٠ ـ صفوة الاعتبار: ج٥ ص و.

٥١ ـ المرجع السابق ص ن.

٥٢ ـ راجع «الوقائع المصرية» ع ١٤٥ بتاريخ ١٨٨٩/١٢/٢١.

٥٣ ـ راجع : محمد بيرم الخامس ص٥.

٥٤ ـ العروة الوثقى: ط مصر، عام ١٩٥٧ ص. د.

٥٥ ـ الاظهار: كتاب مختصر في النحو.

٥٦ ـ جمال الدين الافغانى: ذكريات وأحاديث: لعبد القادر المغربى، ط دار المعارف بمصر ١٩٤٨، سلسلة «اقرأ» ع ٦٨، ص٢٨.

٥٧ ـ خاطرات جمال الدين الافغانى الحسينى: محمد باشا المخزومى ط القاهرة، بدون تاريخ، ص٤٦.

٥٨ ـ العروه الوثقى: ص هـ.

٥٩ ـ «رواد الوعى الانسانى فى الشرق الاسلامى»: للدكتور عثمان أمين، ط القاهرة ١٩٦١، ع٤٦، ص١٨.

٦٠ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية: كارل بروكلمان ـ تعريب: أمين فارس ومنير البعلبكى، ط: ٥، بيروت ١٩٦٨، ص٥٧٧ ـ ٥٧٨.

٦١ ـ رواد الوعى الانسانى فى الشرق الاسلامى ص ١٩.

٦٢ ـ «رواد الوعى الانسانى فى الشرق الاسلامى» ص٢٧.

٦٣ ـ نفس المصدر، ص٢٩.

٦٤ ـ العروة الوثقى، ص ٣٦١ ـ ٣٦٥.

٦٥ ـ «رواد الوعى الانسانى فى المشرق الاسلامى» ص٣٧.

٦٦ ـ ثوار مسلمون : لمحمد عمارة (سلسلة كتاب الهلال) ط. مصر ١٩٧٢، ص١٢٩.

٦٧ ـ راجع ما كتبه محمد عبده فى مقدمة ترجمة «الرد على الدهريين» ط: ٤ (القاهرة ١٩١٤)، ص١٧.

٦٨ ـ ثوار مسلمون: ص١٣٧.

٦٩ ـ زعماء الاصلاح فى العصر الحديث: ص١١٧.

٧٠ ـ ثوار مسلمون: ص١٣١.

محمد عبده

١٨٤٩..١٩٠٥م

في فترة من تاريخ ثقافتنا العربية وأيام الحرب العالمية الأولى، كان السائل يسأل: من أكتب الكتاب فى لغة الضاد؟ ومن أبرعهم نطقا وأفصحهم لسانا؟ وكثيرا ما تردد بين أغلب مثقفى تلك الفترة: أنهما اثنان الكاتب الذائع الصيت: الشيخ «على يوسف»، صاحب جريدة «المؤيد»، والأديب اللامع: «مصطفى لطفى المنفلوطى»، صاحب «النظرات» و«العبرات» و«المختارات» و«ماجدولين» و«فى سبيل التاج» الخ..

وكانت معارك ومطارحات أدبية ممتعة لابد منها لتصحيح التقدير فى موازين الأدب والأدباء، وكثيرا ما ترددت أسئلة السائلين بعد هذه الفترة عن «رواد الاصلاح»، الذين عملوا على نشر الدين الحى النافذ الاثر، لا الدين المحفوظ فى رواسم وصيغ فيتساءلون عن أعلام نزعة

التجديد والإصلاح فى البلاد الاسلامية؟ وعن أرض الدين الحق؟ وعن أولئك الذين حملوا مشعل النضال ضد المستبدين والجائرين، وقاوموا أنظمة الحكم الفردى والوراثى وما تبعهما من فساد وجور واعتساف؟

وكانت مناقشات حادة وشطحات صوفية بين المعممين والمطربشين، والقدامى والمجددين، وفى وسط هذه الحركة الزاخرة والنقاش البناء، كان يتردد على الشفاه دائما أسماء عدة، فهذا جمال الدين الافغانى، وهذا محمد عبده، وهذا عبد العزيز جاويش، وهذا السيد رشيد رضا، وهذا عبد الرحمان الكواكبى، وهذا عبد الحميد بن باديس والشيخ عبد العزيز الثعالبى ومحمد بيرم الخامس الخ..

لقد كان كل هؤلاء ممن اشتغلوا بهذا الهدف السامى النبيل.. فكان زحام على السبق، وتصحيح لتقييم الحقيقة، وتطوع للتنويه بمن أوقفوا حياتهم من أجل الغير، وتفانوا فى محاربة الرجعيين والسماسرة والظالمين.

وكان لابد للامام محمد عبده ـ بما عرفنا عنه من بعد نظر، وضمير حى، ووطنية صادقة، وايمان عميق بالمثل العليا ـ لأن يحتل الصدارة لهذا المجد الصحيح البعيد عن التضليل والزيف وعن كل ما يشين فى هذا العصر المضطرب الذى عرف انهيار السلطة العثمانية، وتقسيم الممالك الاسلامية بين الدول المستعمرة، وتفقير الشعوب، واستبداد الحكام وجورهم الذى لا يوصف ولايقف عند حد.

لقد كانت شخصية هذا الرائد الشجاع ذات طابع خاص يميزها عن باقى الشخصيات الدينية الأخرى فى هذا القرن.. إنه ثائر حر..

ناضل فى كل ميدان، وخاض معترك الحياة بعزيمة لاتفل، إذا ما أفنتها قوة الخصم، وما أرهبتها المظالم ولا الحرمان أو الايقافات والسجون.

إنه شق عصا الطاعة فى وجه الانجليز، وحمل على عملائه من حكام مصر، ونادى بإصلاح التعليم فى الأزهر وفي غيره من الجامعات والمعاهد فى الشرق، وارتحل الى عديد الاقطار للتعريف بمنهجه الاصلاحى، كما نادى بفتح باب الاجتهاد، أعلن الثورة عن كل قديم بال، قصد إعداد جيل يشعر بمسؤوليته، ويذود عن حياض أمته العربية الإسلامية، ويؤمن برسالته فى هذا الوجود الذى تتقاذفه الاهواء والمطامع من كل جانب، كل ذلك من أجل تحقيق الكرامة، والغد الافضل المشرق للانسان العربى فى كل مكان.

إنه إيثار، وثورة، وطموح، ومد مارد تجاوز الحدود والابعاد.

وأمام هذا العمل الجبار الضخم فى شتى المجالات كانت أسئلة المتشوقين تنهمر كالمطر الغزير مستوضحة عن معالم الطريق لتتقدم فى دربها الطويل الصامت، ومسيرتها الدائبة الصامدة.

ترى من يكون هذا الاستاذ الذى يجيد الفرنسية كتابة ونطقا، ويسيح فى بلاد أوروبا، ويترجم آثار مفكريها، وينقل عن فلاسفتها، ويباحث علماءها ويفتى لما لم يقل به أحد من المتقدمين، ويشترك فى الجمعيات الخيرية، ويجمع المال للفقراء والمنكوبين؟

إنهم رأوه يعمل فى كل مكان، ويتسع صدره لكل الناس، ويقضى أوفر وقته فى خدمة الغير والتفانى فى إعلاء شأن الاسلام والمسلمين..

وازدادت معالم هذه الشخصية الفذة تبرز مع مرور الايام وتوالى السنين.. إنه علم من أعلام النهضة الاسلامية وقائد من قادة الفكر العربى العظام، وزعيم من زعماء الاصلاح وهو فوق كل ذلك فيلسوف إنسانى مجدد، وكاتب اجتماعى مبدع، وخطيب ثائر مصقع، ومتحدث بارع، ومجادل مقنع.. إنه الامام محمد عبده ثائر الشرق وتلميذ جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧م) وصديقه الحميم، وزميله فى النضال ضد انحلال القومية، وتفوق الكلمة والاستسلام للرجعية وللخمول والاستعمار.

عاش محمد عبده سبعا وخمسين سنة قضاها جميعا فى التعلم والتدريس وفى إعلاء شأن الاسلام ونفع أبنائه.

فقد كانت حياة هذا المصلح كالشعلة المضيئة، والقوة الدافعةصنعها بقلبه وفكره وبيده، شأن كل فنان موهوب حينما يريد أن يصنع تحفة رائعة أخاذة.. إنها حافلة بالسعى والجد فيما ينفع الناس والدين.

وقد اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ ميلاد هذا العبقرى الفذ فبينما يرى بعضهم ـ ومنهم «جرجى زيدان» فى مجلة «الهلال»، و«إبراهيم اليازجى» فى مجلة «الضياء»، و«رشيد رضا» فى كتابه عن الامام محمد عبده ـ أن ميلاده كان عام ١٨٤٩م ـ يرى البعض الآخر أنه من مواليد سنة ١٨٤٢م على أن معظم المؤرخين اتفقوا على أنه ولد وتربى «بمجلة نصر» ونشأ فيها شأن عادة كل أطفال الريف، ولم يكن والده من الاثرياء ولا من العظماء، ولا من أصحاب الجاه والسلطة، فقد كانا عاديين كبقية الناس المتوسطين وأن كل ثروتهما يساوى «أربعون

فدانا» وان والده «عبده خير الله» قد هجر أرضه فرارا من ظلم الحكام وقسوتهم وتعسفهم.

ويشيد بعض المؤرخين، ومنهم الدكتور «تشارلز آدمس» ـ بالخصال الحميدة التى يتمتع بها أبو محمد عبده حيث يقول: «ويظهر أن أبوى محمد عبده كانا على خلق عظيم وإن لم يكن لهما حظ من العلم شأن الكثرة من العامة ومن أوساط الناس فى مصر حتى فى عصرنا الحاضر (٧١).

واهتم والده بتربيته فبعد أن استكمل معارفه الابتدائية ألحقاه «بالجامع الاحمدى» فى «طنطا»، ثم تخلى عن الدراسة واشتغل بالزراعة عدة سنين إلى أن تدخل أحد أخوال أبيه هو «الشيخ درويش خضر» واستطاع هذا الأخير أن يحبب اليه العلم وأن يبث فى نفسه المعانى الروحية السامية، وقد تحدث محمد عبده عن فضل هذا الرجل وعما أسداه اليه من نصح وتوجيه فى ترجمته التى خطها بقلمه إذ قال: « .. تفرقت عنى جميع الهموم ولم يبق إلا هم واحد، هو أن أكون كامل المعرفة.. كامل أدب النفس.. ولم أجد إماما يرشدنى إلى ما وجهت اليه نفسى سوى ذلك الشيخ الذى أخرجنى فى بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد.. هذا هو الأثر الذى وجدته فى نفسى من صحبة أحد أقاربى.. فهو مفتاح سعادتى إن كانت لى سعادة فى هذه الحياة..(٧٢).

وتأتى سنة ١٨٦٦م فيلتحق «بجامع الأزهر» ويقضى فيه ثلاث سنين دون أن يجنى فائدة كبرى من دروسه ثم يحل الرائد العظيم:

جمال الدين الافغانى بمصر لأول مرة سنة ١٨٦٩م فيتصل به هذا التلميذ الازهرى ويجد فى علمه وفى أفكاره ما جعله يتشوق إلى الحياة الحقة التى ينشدها كل ثائر حر فى الوطن العربى.

اتصاله بالافغانى :

أحس جمال الدين الافغانى بحيرة هذا الشاب وبولوعه الى المعرفة الصحيحة فوجهه توجيها صائبا نحو الحياة المثلى وقد أمكنه ـ وبفضل طرائقه البيداغوجية المثالية ـ أن يدربه على تحرير المقالات وعلى الخطابة حتى يهيئه ويعده للمستقبل.

وأدرك الشاب الازهرى هذه الطرق الجديدة فى التعليم الذى يسعى جمال الدين لغرسها فى الناشئة قصد إعداد الرجال الذين يمكنهم وقيادة الشعب والنهوض بالبلاد، ووجد عنده أيضا نظرة أخرى عميقة إلى الحياة لم يرها عند غيره، وتأثر به أيما تأثر فأقبل على الحياة، وانكب على العلوم، خاصة العصرية منها، وتطلعت نفسه إلى آفاق أخرى لم يجدها فى الازهر.. إنها الاجواء التى كان يتمناها كل متعطش للمعارف والعلم.. فأتجه اتجاها جديدا.. إنه أقبل على التمرن على الخطابة ليكون خطيبا ثوريا، كما أقبل على تحرير المقالات والفصول النقدية، ليكون محررا بارعا وكاتبا بليغا له تأثيره على الرأى العام، كما بدأ بقراءة أحدث الكتب المترجمة من مختلف اللغات فوجد فيها لذة أخرى لم يحس بها من قبل.

وتمضى الايام وتظهر باكورة مقالاته بجريدة «الأهرام» فى سنتها الأولى فيتطلع الناس إلى كاتب مقال «فلسفة التربية» و«الدعوة إلى

العلوم العصرية» و«العلوم الكلامية» و«القلم» و«المدير الانسانى والمدير العقلى الروحانى» و.. الخ.

والملاحظ أن «محمد عبده» فى جميع هذه المقالات كان يدعو إلى الحيطة من تدخل الاجانب فى مشاكل الامة الداخلية، حاثا على الاعتناء بالشباب، داعيا الى طرح أنظمة التعليم العتيقة، ويفرد المرحوم: «رشيد رضا» فقرة فى كتابه: « تاريخ الاستاذ الامام» ج٢، ص ٤٨ للحديث عن هذه المقالات الدسمة الممتعة فيقول: «... هذا آخر ما رأينا للاستاذ الامام من المقالات فى السنة الأولى من جريدة الاهرام، وكان لايزال مجاورا فى الأزهر لم يصر مدرسا رسميا ، وهى تدل على أنه أوتى من كمال العقل، وسداد الرأى فى بدايته ما لا يزال كبار علمائنا وعظماء رجالنا قاصرين عن إدراكه ولو عمل أهل هذه البلاد بإرشاده منذ تصدى للاصلاح ونشر آرائه فى الصحف، لكانت مصر الآن من أعظم الامم علما، وحضارة واستقلالا، وقوة، ولكن استعداد الامة كان ناقصا...».

وتخرج الرائد: محمد عبده من الأزهر عام ١٨٧٧م باحراه على شهادة العالمية فتلقفته النظارة العلمية فى هذه الجامعة ليكون مدرسا بها، ثم تلقفته أيضا كل من مدرسة «دار العلوم» ومدرسة «الالسن» ليكون استاذاً للتاريخ بهما.

وتهيأ لتلاميذ مصر أن يستفيدوا من محاضرات ودروس هذا الاستاذ الجديد وخاصة ما كان منها يهم «فلسفة ابن خلدون» إلى أن تولى: «الخديوى توفيق» حكم مصر (١٨٨٠ ـ ١٨٩٢) فخشى من هذه

الدعوة الجديدة التى يحمل لواءها: «جمال الدين الأفغانى» فأصدر أمرا بنفيه من البلاد، كما أصدر أمرا ثانيا بعزل محمد عبده عن: دار العلوم.

وفى سبتمبر ١٨٨٠ عين رياض باشا الامام محمد عبده محررا بجريدة «الوقائع المصرية» ثم رئيسا لتحريرها[٧٣]، ووجد محمد عبده مجالا فسيحا فى هذه الخطة، فكانت مقالاته الاخلاقية والاجتماعية والتوجيهية محل إعجاب الجميع، وتلتهم التهاما من طرف مريديه ومن المثقفين بوجه عام.

وفى ٢٤ ديسمبر ١٨٨٢ يتهم هذا العبقرى بالمشاركة فى ثورة: «أحمد عرابى» ويحكم عليه الانجليز بالسجن، ثم بالنفى لمدة ثلاث سنوات بسوريا.. ويتقبل المصلح الشجاع هذا الحكم برباطة جأش وبجلد منقطع النظير.

ويعيش السجين محمد عبده فى سجنه.. فى عزلة تامة، وكل أمانيه أن يرى نور الحرية فى مصر حتى يبدأ الجهاد من جديد فى بلاده أو فى بلاد أخرى من بلاد العالم الإسلامى، وقد بعث بهذه الأمنية من سجنه إلى أحد أصدقائه قائلا: «إن الحوادث المريعة سوف تنسى، وأن الشرق سوف يرد.. كل ذلك إن عشت وساعدتنى صحة الجسم، ولا أطلب شيئا فوق هذين سوى معونة الله الذى عرفه بعض الناس وبعضهم له منكرون».

محمد عبده فى باريس:

وأثناء فترة نفيه تلقى دعوة من أستاذه وصديقه الثائر جمال الدين الأفغانى ليلتحق به فى باريس ولبى هذا الطلب.. ويظهر لى أنه ثائر

بالحضارة الفرنسية وبالتقدم هناك أيما تأثر ومما يدلنا على هذا، أنه ما أن مضى شهر على إقامته هناك حتى أصبح كالأوروبى فى مظهره وحلاقته وملابسه.. أنه استطال شعر رأسه ولحيته، وقارب مظهره مظهر «أهل الفن من الأوروبيين»(٧٤).

وفى باريس عاصمة الحرية والنور تكاتف جمال الدين ومحمد عبده على إعادة مجد الإسلام وقوته أو أن يستشهدا فى سبيل ذلك وقد أكد الأفغانى هذا الاتفاق فى فقرة من مقال له نشر «بالعروة الوثقى» حيث قال: «.. تأخر صدور الجريدة أياما لضرورة ما لمسنا من ضعف فى المزاج مع مصادفة رداءة الهواء فى البلاد الفرنسوية هذه الأيام والحمد لله على زوال المانع إلا أننا مع ذلك لم نقصر فى أداء الواجب من العمل الذى قمنا به فى المدافعة عن حقوق المسلمين فقد خلقنا والشكر لله لهذا العمل وطبعنا عليه ونرجو من ديان السماوات والأرض أن نموت فى هذا السبيل وأن نبعث فى زمرة السالكين فيها....(٧٥).

ثم فى هذا البلد أيضا أنشأ الافغانى فى عام ١٨٨٤م تلك الجمعية السياسية السرية: «جمعية العروة الوثقى» فانضم إليها الرائد محمد عبده كما انضم إليها غيره من مريدى حركة الاصلاح الدينى والاجتماعى، وقد كان لابد لمن يريد الانخراط فى سلك العاملين بها أن يقسم يمينا وضعه الثائر محمد عبده نقتطف منه ما يلى:

«.. أقسم بالله العالم بالكلى والجزئى والجلى والخفى: القائم على كل نفس بما كسبت، الآخذ لكل جارحة بما اجترحت، لأحكمن كتاب الله تعالى فى أعمالى وأخلاقى بلا تأويل ولا تضليل. أقسم بالله مالك

روحى ومالى، القابض على ناصيتى ، المصرف لإحساس ووجدانى الناصر لمن نصره، الخاذل لمن خذله، لابذلن ما فى وسعى لاحياء الاخوة الاسلامية، ولا أنزلنها منزلة الابوة والنبوة الصحيحين؛ ولاعرفنها كذلك لكل من ارتبط برابطة العروة الوثقى، وأنتظم فى عقد من عقودها ولأ راعينها فى غيرهم من المسلمين الا أن يصدر عن أحد ما يضر بشوكة الاسلام فانى أبذل جهدى فى إبطال عمله المضر بالدين، وآخذ على نفسى فى أثره مثل ما أخذ عليها فى المدافعة عن شخصى الخ..[٧٦].

ولم يكن اسم «العروة الوثقى» مقصورا على الجمعية وحدها فحسب ولكنه أيضا أطلق على «المجلة» التى أنشأتها هذه الجمعية ابتداء من ١٣ مارس ١٨٨٤م وهذه صورة ما كتب فى فاتحة العدد الأول[٧٧].

العدد الأول من: العروة الوثقى.

لا انفصام لها

يوم الخميس فى ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

«ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير، هذا ما تمده العناية الالهية من قول الحق، متعلقا بأحوال الشرق، وعلى الله المتكل فى نجاح العمل خفيت مذاهب الطامعين أزمانا ثم ظهرت، بدأت على طرق ربما لاتنكرها الأنفس ثم التوت، أوغل الأقوياء من الأمم فى سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر الخ...».

ولاشك أن كل من أمعن فى هذه الفقرة يلمس الغرض من انشاء هذه الجريدة ومنهجها الاصلاحى الذى يتلخص فيما يلى:

(أ) تنبيه الضعفاء إلى ما يريده الاقوياء بهم.

(ب) شرح الاسباب التى أدت إلى ضعف الضعفاء وقوة الاقوياء.

واستطاعت هذه الجريدة بفضل التأييد الذى وجدته من طرف الغيورين عن الإسلام أن تبلغ هذين الهدفين:

١ - تحقيق التهافت عليها ومحاولة تفهم أغراضها ومراميها وقد وجدت رغبة من المسلمين وحرصهم للاستفادة منها ومما يدلنا على هذا القول قول الامير شكيب ارسلان: «١٨٧٠ ـ ١٩٤٦م» مادحا السيد جمال الدين الافغانى الذى كان يوحى بالفكرة:

ومعان لو أوحيت لجماد هزه الشوق نحوها والغرام

حيرت كل ذى حصاة الى أن قيل لاشك أنها الهام

كما نوه بفضل محمد عبده الذى كان يبرز أفكار أستاذه وآرائه فى ذلك الاطار العربى السليم:

كلام إذا ألقيته فى جماعة غدا منك مثل اللؤلؤ الرطب ينشق

عليه من النور الالهى مسحة تكاد على أرجائه تتألق

٢ - الفزع الذى أصاب الغرب وخاصة ساسة بريطانيا الذين وقفوا ضد رواجها فى الممالك الاسلامية كالهند ومصر والسودان والعراق والكويت.

وعلى الرغم من كل التضييقات التى فرضت على هذه «المجلة» فقد استطاع ثائرا الشرق: «الافغانى وعبده» من أن يصدعا بآرائهما ويبلغا صوتهما الى كافة المسلمين فى جميع أنحاء العالم قصد تحقيق الاغراض التالية:

١ ـ بث فكرة الرابطة الشرقية.

٢ ـ الوصول إلى حل القضية المصرية ومحاولة إبعاد مطامع الاجانب بجلاء الانجليز.

٣ ـ تمهيد الطريق الى بعث جامعة اسلامية وتقوية الصلات بين الامم الإسلامية.

٤ ـ النظر فى المسألة السودانية والقيام بعمل يعود على المسلمين بالخير.

٥ ـ محاولة بعث الآمال فى النفوس وتبيين أن طريق النهوض ليست بالصعوبة المتوهمة التى توجب فتور الهمة أو خور العزيمة.

٦ ـ إطلاع الشرقيين على الأحداث العالمية وأسرارها ليكونوا على بينة بما يدبره السياسيون الاوربيون وما يبيتونه لهم[٧٨].

فهذه جمعية «العروة الوثقى» وغاياتها، وهذه مجلتها وأغراضها، وقد ظل الافغانى وعبده يعملان فى صمت وعلى صفحات مجلتهما دفاعا عن الإسلام وعن مقومات الامة العربية واستمر نشاطهما الى أن تعطلت «العروة الوثقى» يوم ١٦/١٠/١٨٨٤ بعد صدور العدد الثامن عشر منها.

وعلى العموم فأقل ما يمكن أن نستنتجه من جهاد الاستاذ الامام محمد عبده فى جمعية «العروة الوثقى» هو أنه كان زعيما دينيا، ومصلحا اجتماعيا كبيرا، وسياسيا قديرا ماهرا، ووطنيا مخلصا، فلو راجعنا مجموع مقالاته فى هذه المجلة فأننا نجد كامل آرائه وأفكاره وآماله، فهو أول من نادى بالجلاء عن مصر والسودان، وأول من وجه الأفكار بطريقة عملية الى محاولة التخلص من البريطانيين ومن مخلفاتهم.

جهاده السياسى:

لقد عاش الاستاذ محمد عبده كامل أحداث عصره وشاهد المظالم التى كانت تنهال على المصلحين والوطنيين الشرفاء، ورأى بعينيه سياسة المكر والخداع التى تتبعها بريطانيا فى مستعمراتها وخاصة فى بلدان المشرق العربى، فحركت هذه الدوافع فى نفسه لهيب الثورة فأعلنها شعواء على الرجعيين والسياسيين المحترفين، وعلى الاستعمار وعملائه، فكان يبدى رأيه بكل شجاعة متحديا الصعاب ومجابها الخصوم والاعداء. إنه بين رأيه فى كثير من مشكلات عصره، فناصر النظام النيابى فى البداية، ثم بعد أن اتضح له جهل الشعب ومساوئ الحكومات والفوضى العقلية آثر انتصاب بريطانيا بمصر، فكر فى وضع أول لبنة للاصلاح فدعى إلى «حماية الاخلاق»، والى الأخذ بالتربية القومية، قصد إعداد جيل قادر بامكانه أن يحمل مشعل النضال ويقود الامة نحو الكرامة والمجد والعلا والسؤدد.

ولكن بعث شباب كهذا ليس بالأمر الهين، ولن يتأتى الا على يد حاكم قوى نزيه عادل، فنادى بتطهير المجتمع من النفوس الضعيفة

ومن محترفى السياسة والانتهازيين والمتخاذلين.. إنه أخذ يحث على إقصاء هؤلاء عن منصاب الحكم لكى يتبوأ المسؤولية ذو الارادة القوية، والتصميم الحازم والضمير اليقظ الحى.

وظل يواصل جهوده من أجل علاج العلل فأصلح المحاكم الشرعية، وأدخل نظاما تربويا هادفا فى الأزهر وغيره، واعتنى بالجمعيات الخيرية، ودعى إلى مراقبة المدارس، والى تدعيم الصحافة الوطنية التى تعبر عن احتياجات الجماهير.

وأمام تدهور الحالة السياسية فى مصر خاصة وعموم بلدان المشرق العربى عامة كتب «محمد عبده» مقالا تاريخيا خالدا أعلن فيه - وبصراحته المعهودة - إلى وجوب إلغاء المجالس النيابية لأنها ضرب من ضروب «الفولكلور» فأى منفعة تسديها للشعوب ما دامت الامة ممزقة الأوصال، مشتتة الاهواء، وما دامت أحزابها السياسية خاضعة فى تصرفاتها لمآربها الشخصية، وما دام نوابها فى (البرلمان) تعوزهم الكفاءة والاخلاص وليس لهم أى تأثير على المجتمع.

وكان محمد عبده يرى أن أساس كل عمل يراد له النجاح لابد أن يكون مبنيا على التعاون والمشورة والوفاق.. ولذلك رأيناه يدعو الى أن تكون «التربية الجديدة» مبنية على الايثار، والاتحاد، ومحبة الغير إن: «العلم الحقيقى هو الذى يعلم الانسان من هو ومن معه فيتكون من ذلك شعور واحد، ورابطة واحدة، هى ما يسمونه بالاتحاد».

وكان محمد عبده يؤمن بتسليح الاسرة بتربية اجتماعية اخلاقية، لذلك رأيناه يتحسر على ما حل بمصر من ويلات وهزات وتفكك

اجتماعى فذكر أن ثلاثة أرباع القضايا فى مصر فى عهده، كانت ناشئة بين الأقارب فشاهدناه يكتب فى عام ١٨٨٤م فيتساءل عن مصير مجتمعه الذى تحف به الاخطار من كل الجوانب فيقول: «.. فهل من المعقول أن يكون الفساد فى العلائق الطبيعية إلى هذا الحد من التصرم، ونتساءل عن تصرم العلائق الوطنية؟ هل يمكننا بعد أن نفقد الروابط الضرورية بين العائلات أن نبحث عن الروابط الخارجية للجامعة الكبرى؟..»(٧٩).

محمد عبده الكاتب المفكر:

يعد محمد عبده من مشاهير كتاب هذا القرن وتتميز كتاباته غالبا بنزعة الاصلاح الدينى، فقد جاهد طويلا لنشر هذه الدعوة وتطهير الدين مما ألحق به من أباطيل وضلالات وتنحصر دعوته فى:

(أ) تحرير الفكر من قيود التقليد.

(ب) فهم الدين على أصول ومعطيات جديدة والرجوع إلى المنابع الأولى قبل ظهور الخلاف.

(جـ) اعتبار الدين صديقا للعلم لا عدوا له.

ولتحقيق هذه الأهداف الثلاثة سعى الرائد «محمد عبده» لتعميق هذه المفاهيم الجديدة ونشر حركة الاصلاح سواء فى البلاد التى أثر فيها بشخصه كسوريا، ومصر، وتونس، وفرنسا، وبريطانيا والجزائر، أو فى البلاد الاخرى التى كان له فيها مريدين وأنصارا كالهند، وسنغافورة، واليابان، وجاوة، وأندونيسيا، والصين وغيرها.

فمن هذا الاختيار التلقائى الهادف كانت مقالاته فى «الأهرام» و«الوقائع المصرية»، و«العروة الوثقى» و«المنار» ثم جاءت دراساته القيمة ومؤلفاته الدسمة تثبت منزعه الفكرى جليا واضحا مثل: «رسالة الواردات» و«الاسلام والتجديد» و«حاشية عقائد الجلال الدوانى» و«رسالة التوحيد» و«شرح نهج البلاغة» و«شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى» و«شرح البصائر النصرانية» و«الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» الخ...

ومحمد عبده بإبرازه لهذه الآثار يكون قد سجل مواقف مشرفة تدل عن شجاعته وغيرته على قضايا العروبة والاسلام، كما أن طريقة صياغة هذه الدراسات كانت عبارة عن أسلوب منهجى جديد فى البحث يجمع بين الاصالة والاستقلال بالرأى، فهو فى استدلالاته وآرائه وأفكاره، يسلك الطريق الفلسفى والافلاطونى القديم الذى جدده ـ ديكارت ـ وأعاد بناءه «كانت» ونحن فى كل ما نقرأه له من فصول ودراسات نلمس فيها آفاقا جديدة لفهم غوامض الاشياء وكنهها وهى فى مجموعها تقحمنا وتحثنا على النظر الى الانسان بعين الروح وإخضاعه لشريعة العقل مع الحرص على الاعتدال..

ولايحسب هذا المحصول قليلا من مجهود التأليف فى حياة رجل جم المشاغل والاعباء توفى عن سن السابعة والخمسين، بل العكس هو الصحيح، اذ فيما تركه لنا هذا العبقرى من مؤلفات وبحوث نرى قدرة هذا الكاتب، ونلمس صدق عاطفته، وسعة ثقافته، فلنقرأ مثلا لمقالاته العديدة المنشورة فى جريدة «الوقائع المصرية» والتى كتبها بعد طرده

من وظيفة التدريس «بدار العلوم»: (١٨٧٩) مثل: «اختلاف القوانين باختلاف الأمم»، و«الملكات والعادات»، و«ما هو الفقر الحقيقى فى البلاد»، و«وضع الشيء فى غير محله»، و«تعدد الزوجات»، و«اسراف الفلاح وضرر الديون». و«الشورى وولى الأمر»، و«الشارى والقانون» و«تأثير التعليم عن العقيدة» فإننا سنجد فيها متعة فنية، وخيالا خصبا ولغة تمتلك القلوب بقوة أسلوبها وبجزالة الفاظها[٨٠].

وهدفه من نشر هذه المقالات هو الاصلاح القومى ونشر الحرية، ودفع الجماهير الى ميادين العمل والبناء.

كما أن كل من يطلع على كتاباته السياسية، خاصة ما نشر منها بين سنتى ١٨٨٠ و١٨٨١ أى قبل الثورة العرابية، يوقن بحرارة لهجته، وتحديه للطغاة، وعنفه مع مستعمرى الشرق وما أحسب أن كاتبا فى عهده فى مصر استطاع أن يهاجم أسرة محمد على ومحمد على نفسه كما تحدى محمد عبده وكتب.

ولقد كتب مقاله هذا فى يوم ٧ جوان عام ١٩٠٢ بمناسبة الاحتفال بذكرى مرور مائة سنة على قيام أسرة محمد على: (١٨٠٣) فكتب ليهدم هذه الأسطورة الزائفة قائلا تحت عنوان: «ماذا صنع محمد على؟»: «لغط الناس هذه الأيام فى محمد على وما له من الاثار فى مصر وأهلها وأكثرت الجرائد من الخوض فى ذلك، والله أعلم ماذا بعث المادح على الاطراء، وماذا حمل القادح على الهجاء، غير أنه لم يبحث باحث فى حالة مصر التى وجدها عليها محمد على وما كانت تصير البلاد اليه لو بقيت، وما نشأ عن محوها واستبدال غيرها بها على يد

محمد على، أذكر الآن شيئا فى ذلك ينتفع به من عساه ينتفع، ويندفع به من الوهم ما ربما يندفع.

تولت السلطة المصرية ـ قبل دخول الجيش الفرنسى ـ أنواع من الحكومات التى تسمى فى اصطلاح الغربيين حكومات الاشراف وتسمى فى المصريين حكومات الالتزام، وتعرف عند الخاصة بحكومات الاقطاع، وأساس هذا النوع من الحكومات تقسيم البلاد بين جماعة من الامراء، يملك كل أمير منهم قسما يتصرف فى أرضه، وقوى ساكنيها، وأبدانهم، وأموالهم، كما يريد، فهو حاكمهم السياسى والادارى والقضائى، وسيدهم المالك لرقابهم. ومن طبيعة هذا النوع من الحكومات أن تنمو فيها الأثرة ويغلظ فيها أصول الاستبداد وفروعه، وتنزع نفس كل أمير إلى توسيع دائرة ملكه بالاستيلاء على ما فى يد جاره من الامراء. فكان من مقتضى الطبيعة أن كل أمير لا ينفك عن التدبير والتفكر فيما تعظم فيه شوكته، وما يدفع به عن حوزته. وأن يكون الجميع دائما فى استعداد، إما للوثوب وإما للدفاع، ولكن الامراء فى مجموعهم كانوا يقاومون سلطة الملوك، فيضطر الملك لاستمالتهم ومحاباة بعضهم، للاستعانة به على البعض الآخر، فضعف بذلك استبداد الملوك فيهم.

وكانت حاجة الامراء الى المال كانت تسوقهم الى ظلم رعاياهم، وكانت شدة الظلم تميل برعاياهم الى خذلانهم عند هجوم العدو عليهم، ظهر ذلك فى خصوماتهم المرة بعد المرة، فاضطر الامراء أن يخففوا من ظلمهم، وأن يتخذوا من الأهلين انصارا يضبطونهم عند قيام الحرب بينهم وبين خصومهم.

أحس الاهلون بحاجة الامراء اليهم فزادوا فى الدالة على الامراء، واضطروهم الى قبول مطالبهم، فعظمت قوة الارادة عند أولئك الذين كانوا عبيدا بمقتضى الحكومة، وانتهى بهم الأمر أن قيدوا الامراء والملوك معا، ولم يكن ذلك في يوم أو عام، ولكنه كان فى عدة قرون كما هو معروف عند أهل المعرفة الامراء والملوك معا، ولم يكن ذلك في يوم أو عام، ولكنه كان في عدة قرون كما هو معروف عند أهل المعرفة والتاريخ.

نعم كانت الحكومة فى مصر على نوع تخالف به جميع الحكومات الشرقية، وكانت البلاد متوزعة بين أمراء، كل منهم يستغل قسما منها ويتصرف فيه كما يهوى، وكان كل يطلب من القوة ما يسمح له بمد يده الى ما فى يد الآخر ويدفع به صولته، فالخصام كان دأبهم والحرب كانت أهم عملهم، لذلك كان كل منهم يستكثر من المماليك ما استطاع ليعد منهم جنده، ولكن كانت تعوزه مؤنتهم إذا كثروا فاضطروا الى اتخاذ أعوان من أهالى البلاد، فوجدوا من العرب أحزابا كما وجدوا منهم خصوما، ثم رجعوا الى سكان القرى فوجدوا فيهم ما يحتاجون اليه، فاتخذوا بيوتا منها أنصارا لهم عند الحاجة وعرف هؤلاء حاجة الامراء اليهم فارتفعوا فى أعينهم وصار لهم من الأمر مثل ما لهم أو ما يقرب من ذلك لهذا كنت ترى فى البلاد المصرية بيوتا كبيرة لها رؤساء يعظم نفوذهم ويعلو جاههم..

لذلك كان يقضى على كل أمير من أولئك الامراء أن يصرف زمنه فى التدبير، واستجلاب النصير، واعداد ما يستطيع من قوة لحفظ

ما فى يده، والتمكن من إخضاع غيره، أنصاره من الأهالى كانوا يجاورونه فى ذلك خوفا من تعدى أعوان خصمه عليهم، فوقعت القسمة بين الأهالى.

جاء الجيش الفرنسي والبلاد فى الحالة.. دخل البلاد بسهولة لم يكن ينتظرها، احتل عاصمتها واستقر له السلطان فيها، لم تكن إلا أيام قلائل حتى ظهر فيه القلق، وعظمت حونه القلاقل، أخذت القوة الحيوية الكامنة فى البلاد تظهر، فكثرت الفتن ولم تنقطع الحروب والمناقشات ولم يهدأ لرؤساء العساكر بال، يدلك على ذلك شكوى نابليون نفسه فى تقاريره التى كان يرسلها الى حكومة الجمهورية من اصطياد العربان لعساكره من كل طريق، وسلبهم أرواحهم بكل سبيل، واضطر نابليون أن يسير فى حكومة البلاد بمشورة أهلها، وانتخب من أعيانها من يشركه فى الرأى لتدبيرها، طوعا لحكم الطبيعة التى وجدها.

قتل بعض رؤساء الجيش واضطربت عليه البلاد وجاء الجيش العثمانى وعاونه الجيش الانجليزى، وخرجت عساكر الفرنسيين من مصر، ولاأطيل الكلام فقد ظهر محمد على بالوسائل التى هيأها له القدر، ما الذى كانت تنتظره البلاد من نوع حكومتها؟ كانت تنتظر أن يشرق نور مدنية يضيء لرؤساء الأحزاب طريقهم فى سيرهم لبلوغ آمالهم، وقد كان ذلك يكون لو أمهلهم الزمان حتى يعرف كل منهم ما بلغ غيره الغاية التى كان يقصدها فى بلاد غير بلاده، وما كان بينهم وبين ذلك إلا أن يختلطوا بأهل البلاد الغربية، ويرتفع الحجاب الذى

أسدله الجهل دونهم، أو كانت تنتظر أن يأتى أمير عام بصير فيضم تلك العناصر الحية بعضها الى بعض ويؤلف منها أمة تحكمها حكومة منها ويأخذ فى تقوية مصباح العلم بينها. حتى ترتقى بحكم التدريج الطبيعى، وتبلغ ما أعدته لها تلك الحياة الأولى.

ما الذى صنع محمد على؟ لم يستطع أن يحيى ولكن استطاع أن يميت، كان معظم قوة الجيش معه، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولا وأعانة على الخصم الزائل فيمحقه، وهكذا حتى إذا سحقت الاحزاب القوية، وجه عنايته الى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدع منها رأسا يستتر فيه ضمير «أنا»، واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلا لجمع السلاح من الأهلين وتكرر ذلك منه مرارا حتى فسد بأس الاهالى، وزالت ملكة الشجاعة منهم، وأجهز على ما بقى فى البلاد من حياة فى أنفس بعض أفرادها، فلم يبق فى البلاد رأسا يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه، أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه.

أخذ يرفع الاسافل ويعليهم فى البلاد والقرى كأنه يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم، حتى انحط الكرام، وساد اللئام، ولم يبق فى البلاد الا آلات له يستعملها فى جباية الاموال، وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أى وجه، فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال نفس؛ ليصير البلاد المصرية جميعها اقطاعا واحدا له ولأولاده، على أثر اقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة. ماذا صنع بعد ذلك؟ أشرأبت نفسه لان يكون ملكا غير تابع للسلطان

العثمانى، فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوروبيين، فأوسع لهم فى المجاملة وزاد لهم فى الامتياز خارجا عن حدود المعاهدات المنعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية، حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه ملكا من الملوك فى بلادنا يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل، وصفرت نفوس الاهالى بين أيدى الاجانب بقوة الحاكم، وتمتع الاجنبى بحقوق الوطنى التى حرم منها وانقلب الوطنى غريبا فى داره، غير مطمئن فى قراره، فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذلان: ذل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة، وذل ساهم الاجنبى إياه ليصل الى ما يريده منهم غير واقف عند حد أو مردود الى شريعة.

قالوا إنه أطلع نجم العلم فى سماء البلاد، نعم عنى بالطب لاجل الجيش والكشف على المجنى عليهم فى بعض الاحيان عندما يراد إيقاع الظلم بمتهم، وبالهندسة لاجل الرى حتى يدبر مياه النيل بعض التدبير ليستغل إقطاعه الكبير!

هل فكر يوما فى إصلاح اللغة: عربية، أو تركية، أو أرنوطية؟ هل فكر فى بناء التربية على قاعدة من الدين أو الأدب؟ هل خطر فى باله أن يجعل للأهالى رأيا فى الحكومة فى عاصمة البلاد أو أمهات الاقاليم؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع ويستقل العدل؟ لم يكن شئ من ذلك بل كان رجال الحكومة إما من الأرنووط، أو الشراكسة أو الأرمن المورالية، وما أشبه هذه الاوشاب، وهم الذين يسميهم بعض الأحداث من أنصار اليوم دخلاء، وكانوا

يحكمون بما يهوون لايرجعون الى شريعة ولاقانون، وإنما يبتغون مرضاة الامير، صاحب الاقطاع الكبير.

أين البيوت المصرية التى أقيمت فى عهده على قواعد التربية الحسنة؟ أين البيوت المصرية التى كانت لها القدم السابقة فى إدارة حكومية أو سياسة، مع كثرة ما كان فى عصر البيوت الرفيعة العماد الثابتة الاوتاد؟

أرسل جماعة من طلاب العلم ألى أوروبا ليتعلموا فيها، فهل أطلق لهم الحرية أن يبثوا فى البلاد ما استفادوه؟ كلا، ولكنه استعملهم آلات تصنع له ما يريد وليس لها ارادة فيما تصنع، وجد بعض الاطباء الممتازين وهم قليل ووجد بعض المهندسين الماهرين وهم ليسوا بكثير، والسبب فى ذلك أن محمد على ومن معه لم يكن فيهم طبيب ولا مهندس فاحتاجوا الى بعض المصريين ولم يكن أحد من الاعوان مسلطا على المهندس عند رسم ما يلزم من الأعمال، ولا على الطبيب عند تركيب أجزاء العلاج، فظهر أثر استقلال الارادة فى الصناعة عند أولئك النفر القليل من النابغين، وكأن ذلك مما لا تخشى عاقبته على المستبدين!

هل كانت له مدرسة لتعليم الفنون الحربية؟ أين وأين الذين نبغوا من طلابها؟ فان وجد أحد نابغ؛ فهل هو من المصريين؟ عدوا أن شئتم أحياء أو أمواتا.

أوجد كثيرا من الكتب المترجمة فى فنون شتى من التاريخ والفلسفة والآداب، ولكن هذه الكتب أودعت فى المخازن من يوم طبعت

وأغلقت عليها الابواب الى أواخر عهد اسماعيل باشا فأرادت الحكومة تفريغ المخازن منها، وتخفيف ثقلها عنها، فنثرها بين الناس فتناول منها من تناول، وهذا يدلنا على أنها ترجمة برغبة بعض الرؤساء من الأوروبيين الذين أرادوا نشر آدابهم فى البلاد، لكنهم لم ينجحوا لأن حكومة محمد على لم توجد فى البلاد قراء، ولا منتفعين بتلك الكتب والفنون...!

كانوا يخطفون تلامذة المدارس من الطرق وأفناء القرى كما يتخطفون عساكر الجيش، فهل هذا مما يحبب القوم فى العلم ويرغبهم فى إرسال أولادهم الى المدارس؟ لا، بل كان يخوفهم من المدرسة كما كان يخيفهم من الجيش.

حمل الأهالى على الزراعة ولكن ليأخذ الغلات ولذلك كانوا يهربون من ملك الاطيان كما يهرب غيرهم من الهواء الاصفر والموت الاحمر، وقوانين الحكومة لذلك العهد تشهد بذلك.

يقولون إنه أنشأ المعامل والمصانع، ولكن هل حبب إلى المصريين العمل والصنعة حتى يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم؟ وهل أوجد اساتذة يحفظون علوم الصنعة وينشرونها فى البلاد؟ أين هم؟ ومن كانوا؟ أين آثارهم؟ لا، بل بغض الى المصريين العمل والصنعة بتسخيرهم فى العمل والاستبداد بثمرته، فكانوا يتربصون يوما لا يعاقبون فيه على هجر العمل والمصنع لينصرفوا عنه ساخطين عليه، لاعنين الساعة التى جاءت بهم اليه.

يقولون إنه أنشأ جيشا كبيرا فتح به الممالك ودوخ به الملوك وأنشأ أسطولا ضخما تثقل به ظهور البحار، وتفتخر به مصر على سائر الامصار، فهل علم المصريين حب التجند، وأنشأ فيهم الرغبة فى الفتح والغلب، وحبب اليهم الخدمة فى الجندية وعلمهم الافتخار بها؟ لا، بل علمهم الهروب منها وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين أنهم يساقون إلى الموت، بعد أن كانوا ينتظمون فى أحزاب الامراء، ويحاربون ولا يبالون بالموت أيام حكم المماليك، وكان من ينتظم فى الجندية على عهد محرر مصر لايخرج منها إلا بالموت، هل شعر مصرى بعظمة أسطوله أو بقوة جيشه؟ وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك إليه بأن يقول هذا جيشى وأسطولى أو جيش بلدى أو أسطوله؟ كلا لم يكن شيء من ذلك فقد كان المصرى يعد ذلك الجيش وتلك القوة عونا لظالمه فهى قوة خصمه، كذلك كان يعدها كل عثمانى فى مصر، ليقل لنا أنصار الاستبداد كم كان فى الجيش من المصريين الذين بلغوا فى رتب الجندية الى رتبة البكباشى على الأقل؟ فما أثر ذلك فى حياة مصر والمصريين إلا أسوأ الآثر، أثر كله شر فى شر، لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدمت واندثرت.

ظهر الأثر العظيم عندما جاء الانجليز لإخماد ثورة عرابى، دخل الانجليز مصر بأسهل ما يدخل به دامر على قوم ثم استقروا ولم توجد فى البلاد نخوة فى رأس تثبت لهم أن فى البلاد من يحامى عن استقلالها، وهو ضد ما رأيناه عند دخول الفرنسيين الى مصر، وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الأولى والموت الأخير، وجهله الاحداث فهم يسألون أنفسهم عنه ولا يهتدون اليه.

لايستحى بعض الأحداث من أن يقولوا أن محمد على جعل من جدران سلطانه بنية من الدين، أى دين كان دعامة لسلطان محمد على دين التحصيل؟ «دين الكرباج؟..» دين من لادين له إلا ما يهواه ويريده؟ لا فليقل لنا أحد الناس أى عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين الإسلامى الجليل؟ لا يذكرون له الا مسألة الوهابية، وأهل الدين يعلمون أن الاغارة فيها كانت على الدين لا للدين، نعم وإن فى الوهابية غلوا فى بعض المسائل، غلوا أنكره عليهم سائر المسلمين، وما كان محمد على يفهم هذا ولا سفك دمائهم لإرجاعهم الى الاعتدال، وإنما كانت مسألة سياسية محضة نبعها جرأة محمد على على سلطانه العثمانى وكان معه ما كان مما هو معروف.

نعم أخذ ما كان للمساجد من الرزق وأبدلها بشيء من النقد يسمى «فائض رزنامة» لا يساوى جزءا من الالف من إيرادها، وأخذ من أوقاف الجامع الازهر ما لو بقى له اليوم لكانت غلته لاتقل عن نصف مليون جنيه فى السنة وقرر له بدل ذلك ما يساوى نحو أربعة آلاف جنيه فى السنة.

وقصارى أمره فى الدين أنه كان يستميل بعض العلماء بالخلع أو إجلاسهم على الموائد.. لينفى من يريد منهم إذا اقتضت الحال ذلك، وأفاضل العلماء كانوا عليه فى سخط ماتوا عليه (٨١).

فهذا المقال التاريخى الهام ليعد من أبرز ما كتبه الناثرون فى البلاد العربية فى ذلك العهد، إذ كله ينبض بالقوة، والشجاعة، والبلاغة، ودقة التحليل، والاعتزاز بالمواطن وكرامة المواطنين.

وهو يشرف صناعة القلم ويعلى شأن الكتاب الاحرار.. كتبه محمد عبده فى عهد حفيد محمد على: الخديوى توفيق: (١٨٨٠ ـ ١٨٩٢) وقد نشره فى عام (١٩٠٢) إمعانا فى السخرية من أسرة ذلك الطاغية.

ولمحمد عبده أسلوب فى الكتابة استعاد به أطوار الادب فى كتاباته من نهاية عصر التقليد الى الطور الاوسط من عصر التجديد وتتميز كتاباته الأولى (قبل عام ١٨٨٠) بالسجع مع اجتناب اللغو؛ شأنه فى ذلك شأن معظم كتاب الازهر فى عهده، ومع مرور الايام تخلص من قيود السجع وترسل فى أسلوبه مع تحرى الفصاحة فى الكلمة خاصة لما احتك بجمال الدين الافغانى وبصاحب نهج البلاغة [٨٢] فجاء أسلوبه سلسا قويا، حافلا بالمعانى والأخيلة.

إن محمد عبده الذى تحدث عنه أحد المستشرقين الامريكيين قائلا: «.. كان فلاحا صميما، وليد تربة مصر العريقة قبل أن يغدو مفتيا واماما للمسلمين، وأننا لنلمح فى إخلاصه لهذه التربة، وفى دعوته الى الوطنية، مزاجا عجيبا من الوفاء للماضى المجيد، والاستمساك بيقين الدين، والولاء لوطنية الفلاح»؛ استطاع بثقافته وإخلاصه لمباديه أن يرفع لواء القيم الروحية، وأن يؤدى رسالته على أفضل الوجوه، وأن يفتح آفاقا واسعة بعيدة فى وجه شباب الجيل الحاضر حتى يتأمل فى واقعه ويعمل من أجل بعث غد مشرق بسام يسوده الأخاء والعدالة ويطمئن اليه الجميع.

الهوامش

٧١- الإسلام والتجديد فى مصر، تأليف: تشارلز آدمس، ترجمة: عباس محمود العقاد، ص ٢٩ .

٧٢- راجع: «مذكرات الامام محمد عبده» تقديم وتعليق: الطاهر الطناحى، ط القاهرة، ص: ٣٢ ـ ٣٣ .

٧٣- أنشئت سنة ١٨٢٨م.

٧٤- راجع كتاب: «الاستاذ الامام محمد عبده» لعبد المنعم حمادة، ط. مصر ١٩٤٥، ص ٩٩ .

٧٥- نفس المصدر، ص ١٠٠ .

٧٦- راجع كامل النص فى نفس المصدر، ص ١١٢ ـ ١١٣ .

٧٧- صدر أول عدد من مجلة «العروة الوثقى» بتاريخ ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ وآخر عدد صدر منها كان فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤ وقد بلغت جملة الاعداد التى صدرت منها ١٨ عددا فقط. إذ توقفت عن الصدور نهائيا نتيجة لمحاربة الاستعمار العالمى لها.

٧٨- راجع: «العروة الوثقى» ص ٣٣ ـ ٣٤.

٧٩- «رواد الوعى الانسانى فى الشرق الاسلامى»، ص ٨٠.

٨٠ ـ محمد عبده: عباس محمد العقاد ـ سلسلة «اعلام العرب» نوفمبر ١٩٦٩، ص١٤٧ .

٨١ ـ مجلة «المنار»: (٧ جوان ١٩٠٢) .

٨٢ ـ تاريخ الأدب العربى : حنا الفاخورى : طـ ـ بيروت ١٩٥١ ، ص ١٠٤٢ .

عبد الحميد بن باديس

١٨٨٩ـ١٩٤٠م

كان أديبا يملأ الدنيا بأدبه ويحسب حسابه فى كل ما يخطه قلمه أو تنبس به شفتاه، فكتاباته تمتاز بطابع فكرى نكاد نلمسه فى كل مقاله من مقالاته التى تهدف إلى اصلاح المجتمع ورقى الأمة.

لقد تملك ناصية القول فلم تعرف الجزائر فى تاريخها الحافل الطويل خطيبا يدانيه فى بلاغته وفصاحته وقوة تأثيره فى الجماهير.. إنه أعطى من ذلاقة اللسان ما يستدعى العجب فما هو الا أن يحرك لسانه حتى تتدفق الالفاظ وتنهال عليه المعانى فتأخذ باللب وتأسر الافئدة وتقود الناس إلى مايريد.

إن الاستاذ عبدالحميد بن باديس من أولئك الرواد الذين فجروا الثورات ودفعوا شعوبهم إلى ميادين التقدم والرخاء، فأحيطوا بهالة من التقدير والعظمة والمجد.

فهو من ثوار المسلمين وأحد الزعماء العظام الذين ألهموا الخير والصلاح فى مجتمعاتهم وصمدوا حتى انبلج الصباح الجديد واستيقظ الشعب وهب ليجاهد فى سبيل الوطن، فكانت تلك الهزة العنيفة التى غيرت مفاهيم الحياة، وقلبت الأوضاع، وهدت ماأشادته الرجعية، فانبعثت فى النفوس المخدرة الأمال بانتصار الحق والمبادئ.

وهكذا وجدت الجزائر فى شخصية «عبد الحميد بن باديس» نفسا جديدا تستمد منه شخصيتها العربية الاسلامية بعد سنى المظالم والجور والارهاب فى ظل الحكم الاستعمارى المباد: (١٨٣٠ـ ١٩٦٢م).

إن شخصية «عبد الحميد بن باديس» شخصية تمثل الدين ولكنه الدين الذى يفتح آفاق المستقبل ويدعو إلى الثورة لا الدين المحفوظ فى رواسم وطقوس الذى يستغله البعض كتجارة مخدرة للشعوب ولقضايا الحرية، وكم قوبلت دعوات «ابن باديس» فى أول الامر بالاستهزاء والسخرية، وكم تعرض للامتهان ولكنه مع كل ذلك حافظ على مبدئه وظل فى إيمانه يتحدى الصعاب ويجابه الخطوب وهو يتذكر إهانات قريش للرسول عليه السلام، بل ويزداد إيمانه وصموده ويمضى فى رسالته فيلتف حوله الأحرار من ثوار الجزائر الصامدين هاتفين هازجين:

شعب الجزائر مسلم ... إلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله ... أو قال مات فقد كذب

وإذا هلكت فصيحتى ... تحيا الجزائر والعرب

هكذا كان يأمل «عبد الحميد بن بادبس» ومن أجل عروبة الجزائر واسلامها وانتشار لغة الضاد فيها ثار: وتعذب واضطهد، وحورب، حتى لقبوه (بابليس) عوض ابن باديس.

كل هذا ورائدنا الثائر الجرئ لم يحفل بما حصل له بل مضى فى سبيله فلم تستطع الايقافات ردعه، ولا المظالم أن تحد من نشاطه أو أن تحول بينه وبين ما يريده ويتمناه لشعبه المكبل بالاغلال فقد كان يبتسم ويردد قولته الشهيرة. «تستطيع الظروف أن تكيفنا ولا تستطيع أن تقهرنا»[٨٣].

وشخصية «ابن باديس» شخصية ثرية خصبة ومع ذلك فان أبخس الاشياء عنده هى «الشهرة» لذلك رأيناه يستنكف عنها فلم يشأ أن يحدثنا عن نفسه، وانه لو فعل ذلك لحرمنا لذة البحث عنه، ولما ترك لنا هذه الصورة المشرقة فى حنايا كل صدر من صدور ابناء الامة العربية.. إنه عندى كأعظم الفلاسفة الرواد الذين اعتصموا بالصمت عما يتصل بذواتهم، وأذابوا مهجهم وأرواحهم فى سبيل قضايا شعوبهم فاستحقوا التقدير والخلود على مر الدهور.

كانت هذه أمانى ابن باديس.. إنه أراد أن يقول ويفعل، فكان ممن أسهموا فى بعث جيل تواق إلى الحرية والرخاء، مؤمن بشخصيته وبأصالته، لذلك لا نعجب أن يفتخر الجزائريون به اليوم ويتسابقون إلى تسمية أبنائهم باسمه.

أجل إنه بحق أبو الجزائر ومعلمها ورائدها وباعث مجدها وأصالتها وكيف لا يكون أبا الجزائر الحديثة وهو نفسه ـ رحمه الله ـ كان يقول

فيما يقول: «لم أنجب أطفالا ومع ذلك فأنا أب لان كل الجزائريين أبنائي.. [٨٤]».

نشأ عبد الحميد بن محمد بن مصطفى بن مكى بن باديس فى عائلة ثرية تنحدر من رجال الدولة الصنهاجية وكان ميلاده بمدينة قسنطينة يوم الجمعة ٤ ديسمبر ١٨٨٩م[٨٥]، واشتهرت عائلته بمواقفها الجريئة وبالدور الذى لعبته فى المجالين السياسى والعلمى طيلة قرون عديدة ابتداء من القرن الرابع الهجرى (٦٢٥م) على أرض المغرب العربى مع العلم وان بعض افراد هذه العائلة قد تولوا أكثر من مسؤولية سياسية بجمهورية مصر العربية عقب انتقال الخلافة الفاطمية من القيروان إلى القاهرة فى ٧ رمضان ٣٦٢ هـ ـ ١١ جوان ٩٧٣م.

وتلقى ابن باديس تعلمه الأول فى «الكتاب» بقسنطينة وفى حى شعبى من أحيائها المكتظة بأرباب الحرف وأهل الصناعة والتجارة، وما أن شب وأصبح قادرا على التعلم حتى أرسله أبوه إلى أستاذ الجيل هناك وهو السيد «حمدان لونيسى» حيث تلقى عليه العلوم العربية والإسلامية وقد لازمه مدة خمس سنوات: (١٩٠٣ ـ ١٩٠٨) ولم يتردد والده حينما لاحظ عليه استعدادا طيبا مبكرا للعلم أن يهبه للثقافة، فلعله يصبح فى يوم ما مفكرا بارعا ورائداً من رواد الاسلام وشيخاً من شيوخه فألحقه بجامع الزيتونة بتونس فيما بين عام ١٩٠٨ وعام ١٩١١[٨٦] وقد أحرز فى نهاية هذه المدة على شهادة «العالمية» التى هيأته للانتصاب للتدريس به لمدة سنة واحدة، شأنه فى ذلك شأن كل الطلبة الذين يتخرجون منه فى تلك الفترة.

أما أبرز أساتذته الذين وجهوه وألهموه طريق العيش من أجل الغير، فكثيرون أذكر من بينهم هؤلاء الاعلام الذين تحدث عن بعضهم فقيدنا ابن باديس فى فترات متقطعة فمنهم: محمد المداسي واحمد ابو حمدان لونيسى الذى وجهه فى بداية عهده بالدراسة وأوصاه «أن يقرأ العلم للعلم لا للوظيف ولا للرغيف[٨٧] وأيضا الاساتذة محمد الخضر بن حسين ومحمد الصادق النيفر وسعيد العياضى ومحمد النخلى والبشير صفر ومحمد الطاهر ابن عاشور.

ويرى الشيخ عبدالحميد بن باديس أن استاذه البشير صفر: (١٨٦٣-١٩١٦م) - الذى كان من أعلام النهضة الاصلاحية فى تونس فى القرن الماضى - من الرواد الذين وجهوه وفتحوا أمامه السبل لكى ينشأ على تلك النشأة العلمية الاصلاحية اذ يقول عنه فى مجلة «الشهاب» عدد جويلية ١٩٣٧ من محاضرة له كان قد ألقاها فى الذكرى العشرين لوفاة هذا الرائد الملهم «وأنا شخصيا أصرح بأن كراريس «البشير صفر» الصغيرة الحجم الغزيرة العلم، هى التى كان لها الفضل فى إطلاعى على تاريخ أمتى، وقومى، والتى زرعت فى صدرى هذه الروح التى أنتهت بى اليوم لان أكون جنديا من جنود الجزائر» .

أما أساتذته الذين تأثر بأفكارهم وشغف بمطالعة آثارهم الفكرية والعلمية فكثيرون هم أيضا لان ابن باديس كان يلتهم التهاما كل ما يقع عليه نظره من كتب ومجلات وتقاويم ومخطوطات وصحف ودرجة تأثره بأفكار هؤلاء تختلف من واحد إلى آخر، لكن على العموم يمكننا

ان نتعرف على بعضهم من خلال بعض الاراء والاقوال التى جاءت على لسانه أو خطها يراعه السيال فهو مثلا عندما زار سوريا واتصل هناك بالكثير من أعلامها كان ابن باديس يرى فى الشيخ «الطاهر الجزائرى» القاطن بدمشق آنذاك أنه قد استفاد من اتصاله به مما جلعه يلقبه «بشيخه» فكان يثنى عليه فى مجالسه الخاصة وينوه بشأنه وبغزارة علمه لتلاميذه ومريديه وحينما علم بوفاته عام ١٩٢٩ كتب عنه دراسة طويلة نشرها فى مجلته «الشهاب» تحت عنوان: شيخى» تحدث فيها عن خصال هذا الاستاذ وفضله على العروبة والإسلام وعليه أيضا وفيها يقول:« .. هو الذى ربى عقلى، وهو الذى حبب إلى هذا الاتجاه الفكرى، منذ أن كنت طفلا إلى أن صرت رجلا ولا أعرف مؤلفا، ولا حامل قلم نشأ فى ديار الشام الا وقد كانت له صلة به إما مباشرة، أو بواسطة الذين استفادوا منه.. [٨٨]» ومنهم الشيخ محمد بخيت المطيعى:(١٨٨٢-١٩٣٥م) العالم الازهرى الشهير ومفتى مصر سابقا وأحد رواد الاصلاح فيها الذين تأثروا بآراء وأفكار المصلح الفيلسوف جمال الدين الافغانى:(١٨٣٩- ١٨٩٧) ، فقد تعرف عليه ابن باديس أثناء مروره بمصر فى عام ١٩١٣ بعد أدائه لمناسك الحج، فزاره فى بيته «بحلوان» وكتب له اجازة فى دفتر اجازاته ونلاحظ تأثر ابن باديس بأستاذه هذا من خلال الدراسة الدسمة التى كتبها عنه على أثر وفاته والتى خص بها مجلته «الشهاب»[٨٩] .

كما أن ابن باديس كان يثنى ويجل الاستاذ الامام محمد عبده بل إنه يعتبره رائد الاصلاح فى المشرق العربى وكان ينقل بعض آرائه من مجلة «المنار» المصرية التى أدارها تلميذه «رشيد رضا» إلى مجلة «الشهاب» الجزائرية.

ولم يكن هؤلاء الاساتذة هم وحدهم الذين تأثر بهم أو تعلم عنهم؛ ذلك أن هناك أساتذة آخرين قدماء ومحدثين نلمس تأثيرهم عليه وعلى أفكاره، وذلك عندما نتصفح بعض إنتاجه الفكرى الغزير الذى كان يمد به الكثير من المجلات والصحف العربية ولعل من أبرز هؤلاء الاعلام الامام أبو بكر بن العربى المتوفى عام (٥٤٣هـ - ١١٤٨م) فقد صاحب ابن باديس هذا المفكر الشجاع لمدة طويلة، وآختلى بكتبه، ودرسها دراسة وافية بل إنه اهتم بنشر بعضها مثل كتاب «العواصم من القواصم» الذى نبهه اليه الشيخ محمد النخلى القيروانى حينما كان ملازما له فى تونس، فقد بحث عن هذا الكتاب وقرأه ثم استنسخه وقدم له بمقدمة هامة ثم طبعه فى جزأين بالجزائر على أثر رجوعه اليها عام ١٩١٢م.

وفى رأيى أن تأثر ابن باديس بهذا المفكر الرائد نستطيع أن نلمسه خاصة فى كتابه «العقائد الاسلامية» الدى لم ينتهج فيه منهج الفلاسفة ولا طريق المتكلمين.. ان ابن باديس فى كتابه هذا نراه قد توخى منهج القرآن فى الاستدلال، وركز أسلوبه فى الرد والنقد بما يتلاءم مع النفوس من فطرة وعفوية.

«فابن باديس» كان يتمتع بتقدير أساتذته، وعطفهم عليه ونلمس هذا واضحا جليا من خلال التقاريض التى كتبوها له على أثر صدور رسالته الشهيرة فى عام ١٣٤٠هـ - ١٩٢١م تحت اسم: «رسالة جواب سؤال عن سوء مقال» والذى رد فيها على البدع التى أثارها الشيخ المتصوف: «على ابن عليوة» شيخ الطريقة العليوية فى مدينة «مستغانم» فلاقت هذه الرسالة تنويها عظيما من أساتذته مما جعله يخصص

صفحات عديدة فى الجزء الاخير من هذه الرسالة لينشر فيها نصوص هذه التقاريض مع جدول طويل يضم مجموع أسماء المقرضين ووظائفهم وعناوينهم[٩٠].

شخصية ابن باديس:

عظمة ابن باديس تتجلى فى أنه صاحب رسالة آمن بها وضحى من أجلها بكل نفيس وغال، فقد هيأته الظروف وتكوينه الثقافي المتين لكى يتحدى الصعاب، فعاش مجاهدا بالقلم واللسان والعمل.. أنه يسل حياته خيطا خيطا من قلة النوم، وكثرة الإجهاد، وتواصل الحرمان حتى تحطم وهو لايتجاوز الخمسين: (٨ ربيع الأول ١٣٥٩ هـ - ١٦ أفريل ١٩٤٠م) إنه رسم معالم الطريق لنهضة إصلاحية ودينية فى بلاده منذ أن زار الحجاز عام ١٩١٣ والتقى هناك بثلة من أعلام الفكر الاسلامى كان من بينهم: حمدان لونيسى وحسين أحمد الهندى، ومحمد البشير الابراهيمى، فقد كانت سهراته مع هؤلاء فرصة للتحدث معهم عن شؤون وطنه، وعن مستقبل شعبه، وعن الطرق الكفيلة بتحقيق النصر لهذا القطر الحبيب، وكانت هذه اللقاءات أيضا فرصة للاحاديث والتعاليق فهذا محمد البشير الابراهيمى يصور لقاءاته بابن باديس فى عام ١٩١٣ فى «المدينة المنورة» قائلا: (كان من تدابير الاقدار الالهية للجزائر ومن مخبآت الغيوم لها أن يرد على بعد استقرارى «بالمدينة المنورة» سنة وبضعة أشهر أخى ورفيقى فى الجهاد بعد ذلك الشيخ عبد الحميد بن باديس أعلم علماء الشمال الافريقى ولا أغالى وبانى النهضات العلمية، والأدبية، والاجتماعية، والسياسية

للجزائر.. كنا نؤدى صلاة فريضة العشاء الاخيرة كل ليلة فى المسجد النبوى ونخرج إلى منزلى فنسمر مع الشيخ ابن باديس منفردين إلى آخر الليل حين يفتح المسجد مع أول داخل لصلاة الصبح، ثم نفترق إلى الليلة الثانية إلى نهاية ثلاثة الاشهر التى أقامها الشيخ «بالمدينة المنورة» كانت هذه الاسمار المتواصلة كلها تدبيرا للوسائل التى تنهض بها الجزائر ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة التى كانت كلها صورا ذهنية تتراءى فى مخيلتنا، وصحبها من حسن النية وتوفيق الله ما حققها فى الخارج بعد بضع عشرة سنة.

وأشهد الله أن تلك الليالى من عام ١٩١٣ ميلادية هى التى وضعت فيها الاسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التى لم تبرز للوجود إلا فى عام ١٩٣١ [٩١].

أما العوامل التى تظافرت على تكوين شخصيته فكثيرة من أهمها:

(أ) تأثره بالقرآن.

(ب) توجيه أبيه له، فقد آعتنى به اعتناء خاصا ووجهه توجيها دينيا مما هيأه لكى يضطلع بدوره الاصلاحى العظيم، وإذا أردت أن تعرف عن لسان ابن باديس هذا واضحا جليا فاقرأ له هذه الفقرة الواردة فى مقال له نشره فى إحدى أعداد «الشهاب»: اذ يقول: «إن الفضل يرجع أولا إلى والدى، الذى ربانى تربية صالحة، ووجهنى وجهة صالحة ورضى لى العلم طريقة اتبعها ومشربا أرده وقاتنى، وأعاشنى وبرانى، كالسهم وراشنى وحمانى من المكاره صغيرا وكبيرا، وكفانى كلف الحياة [٩٢].

(جـ) تجاوب الجزائريين معه.

(د) مؤازرة زعمائه وأصدقائه.

فهذه العوامل الاربعة ساعدت على تكوين شخصيته، وأبرزت مواهبه، ومكنته من أن يضطلع بدوره الاصلاحى على خير الوجوه فيما بعد، كما انها وفرت له معطيات النجاح فى ميادين التربية والتعليم وألهمته لان يصبح فى يوم ما ملما بأسانيد الاحاديث النبوية وبشرحها من ذلك أن درس كتاب «الموطأ» للامام مالك:٩٠ـ١٧٩هـ (٧٠٨ـ٧٩٥م) وختمه فى بضع عشرة سنة، وقد أقامت مدينة قسنطينة مهرجانا بهيجا فى صيف ١٩٣٩ احتفاء بذلك الحدث البارز فى تاريخها على منوال احتفالها بحدث ختم دروس تفسير القرآن الكريم(جوان: ١٩٣٨)[٩٣].

وهكذا فيمكننا إذن أن نقول: إن شخصية عبدالحميد بن باديس شخصية خصبة بهرت بفكرها الثاقب ميادين كثيرة، منها ميادين التربية والتعليم والسياسة والاصلاح والثقافة والادب والصحافة فكانت رائدة فى هذا الشمال بسطت ثورتها على نواحى اجتماعية كثيرة، ووهبت نفسها للعيش من أجل الغير.

إن عبد الحميد بن باديس فى مغربنا العربى أديب رائد، ومصلح مجدد، وداعية دين متطور ومحب للبشر مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم ونحلهم فقد حارب البدع والخرافات. وندد بالمرتشين على حساب الشعب، وثار ضد من يعمل للادماج ولفرنسة البلاد، ووجه سهاما من أشعاره البليغة ضد سياسة «التغريب» التى تحاول فرنسا فرضها على

شعبه، كما أنتقد رجال الطرق الصوفية الذين بالغوا فى خلق البدع البرئ منها ديننا الاسلامى الحنيف والتى صرفت بعض الناس عن العمل الجاد الذى دعا اليه الاسلام وحث عليه وأوصى به.

فشخصية ابن باديس شخصية ثرية خصبة وعملها تجاوز الحدود والابعاد انه رائد سعى كثيرا من أجل بناء شخصية الشعب الجزائرى وتركيز الاصالة على أرضيته وفكره.

ثقافة ابن باديس:

كان ابن باديس ضليعا فى اللغة، ملما بدقائقها ومسائلها، وكان إلى ذلك حاضر البديهة سريع الجواب متخصصا فى الثقافة الاسلامية ومطلعا على التيارات الاصلاحية والسياسية.. إنه من مشاهير أدباء هذا القرن ومن أعلام المفكرين فى الوطن العربى وهو كاتب محب للنكتة يمتاز أسلوبه بالسهولة والسلاسة فلم يلتزم بالبديع، ولا أنساق وراء التكلف، ولا استخدم السجع، وإنما أرسل قوله إرسالا من غير قيد فترك لقلمه العنان ليسجل أفكاره ومشاعره وأحاسيسه من غير تكلف، وهو بحكم العوامل التى أثرت فى تكوين شخصيته ولدوره البطولى فى تركيز الصحافة العربية بالجزائر مثل جريدة «المنتقد»: (١٨ عددا قسنطينة عام ١٩٢٥) وجريدة «الشهاب»: (١٩٢٥ ـ ١٩٢٩م) ومجلة «الشهاب»: (١١ سنة) (من عام ١٩٢٩ إلى عام ١٩٣٩م) ولتعدد جوانب العظمة والخير والشر والاسباب والمسببات فى نظرته إلى الكون والطبيعة وللمجتمع الجزائرى والإسلامى عامة ولآرائه السياسية والاصلاحية وموقفه من الحركات السياسية فى الجزائر، واستماتته فى

الدفاع عن شخصية الجزائر العربية المسلمة وكفاحه من أجل بعث نهضة علمية وتربوية تصلح الفرد والمجتمع اعتبر فيلسوفا لا بالمعنى «الاكاديمى» لمعنى الفلسفة لانه لم يكن له مذهب فلسفى له ملامحه وخصائصه ومميزاته مثل مذاهب فلاسفة الإغريق مثل سقراط، وافلاطون وارسطو أو مذاهب فلاسفة المسلمين مثل: ابن سينا: (٩٨٠ ـ ١٠٣٧م) والفارابى: (٨٧٤ ـ ٩٥١) والغزالى: (١٠٥٨ ـ ١١١١م) وابن رشد (١١٢٦ ـ ١١٩٨م) وغيرهم.[٩٤].

إذن فنظرته الفلسفية تتفق مع نظرية الامام محمد عبده التى كانت نظرة انسانية عريقة مبنية على معنى محبة العلم والتراث وممارسة الفضائل الاخلاقية، وتهذيب السلوك الانسانى.

والتفكير الفلسفى عنده لا يصح أن يكون دائما نظريا «تأمليا» فحسب بل لابد أن يخوض الانسان فيه غمار الوجود ويتحمل قسطه من المسؤولية الشخصية.

لذلك رأينا ابن باديس وهو المثقف الحكيم يعيد للفلسفة ما كان ينبغى أن تكون عليه من تأمل روحى فى معنى الحياة الانسانية ومن تحقيق لدعائم العمل والاخلاق، وهو من هذه الوجهة عالج الكثير من القضايا والاراء التى تزيد فى وعى الانسان لذاته ولرسالته فى هذا الوجود الصخب، فكانت آراؤه فى فهم الدين الاسلامى، وفى وظيفة التربية، وفى طرائق التدريس، وفى كيفية تنظيم التلاميذ، وفى نقد الاخلاق الشخصية والاجتماعية، كما كانت له آراء خاصة فى الاصلاح الدينى والاجتماعى والتربوى لشعب الجزائر.

وقد عبر عن هذه الفلسفة بكل ملامحها وأبعادها فى مقالاته الفلسفية الكثيرة وفيما فسره من سور قرآنية، وفيما دافع به عن الاسلام، وفيما رد به على منتقدية وراسل به أعلام الفكر من الشرق والغرب.

إن أعمال هذا الفيلسوف وفيرة متنوعة ومن الصعب أن يقع ضبطها وحصرها، كما أنه لا يتأتى لنا الإحاطة بمصادر هذه الفلسفة لأن جلها مفقود فدروس التفسير والحديث التى قام بها لمدة أثنتى عشرة سنة: (١٩١٣ ـ ١٩٢٥) لم يقع تسجيلها مثلما فعل الاستاذ رشيد رضا مع استاذه محمد عبده فكل ما نشر من «الفلسفة الباديسية» لا يتجاوز بعض الافتتاحيات كان نشرها ابن باديس نفسه فى مجلته «الشهاب» الشهرية فيما بين أعوام : (١٩٢٩ ـ ١٩٣٩) وهى نفسها التى نشرها بعد وفاته بقسنطينة السيد أحمد بوشمال مدير المطبعة الاسلامية الجزائرية عام ١٩٤٨ ثم تولى من بعده الاستاذان: محمد الصالح بن رمضان وتوفيق شاهين فى عام ١٩٦٤ طبعها من جديد بعدما أضافا اليها إضافات هامة وتوضيحات قيمة.

كما ظهرت بعض ملامح فلسفته فى العمل العظيم الذى قام به على إثر وفاته الاستاذ محمد البشير الابراهيمى (١٨٨٩ ـ ١٩٦٥) فى الاجزاء التى حملت عنوان: «العقائد الاسلامية من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية».

وعلى العموم فعبد الحميد بن باديس مثقف مفكر، وفيلسوف ثورى تناول جملة من القضايا التى شغلت الرأى العام الاسلامى قديما وحديثا فبرزت مضامين فلسفته فى آرائه الدينية، وحماسته للدفاع عنها.

إن نضاله تمثل خاصة فى الدفاع عن شخصية الامة الجزائرية وفى ايمانه العميق بالدين الإسلامى الحنيف القادر على تحويل شعبه من مرحلة التبعية والانحطاط إلى مرحلة التقدم والازدهار.

ابن باديس الاديب:

وفضل عبد الحميد بن باديس على النهضة الادبية الحديثة فى الجزائر والانشاء فيها واحتضنهما من غثاثة الانحطاط وركاكة التركيب، وتعقيد الاساليب إلى المتانة التعبيرية المقترنة بالسهولة والانسجام والصفاء الشفاف..

ونحن لو تأملنا بعض إنتاجه المنشور فى صحافة الجزائر آنذاك لوجدنا إنتاجه أيضا يمتاز بجمال الفكر، وجمال المادة، فهو يحسن التحليل والتعليل على طريقة الجدل، كما أنه يختار اللفظة ويحسن تركيبها فى الجملة تركيبا يتوفر مع التوازن الغير المبنى على السجع فى أغلب الاحيان.

إنه أديب ممتاز أكسب بلغته العربية قوة فأصبحت طيعة تنقاد لكل من يتكلم بها، وتتكيف مع كل قصد، وهو كاتب متقن واضح الافكار تتصاعد من عباراته موسيقى خفيفة يرافقها نوع من الترادف اللفظى الذى يحتاج نوعا ما إلى شئ من التهذيب والتشذيب فهو إذن يجمع بين منطق «المدرسة الحميدية» ويزيد على «ابن المقفع» التقطيع الصوتى والترادف الموسيقى.

ومن ميزات نثر ابن باديس الذى يتمثل فى مقالاته الكثيرة، وفى افتتاحياته المنشورة فى كل من «الشهاب» و«البصائر» و«المنتقد» انه نثر

يخطو بروحه الجدلية وبنزعته التأليفية، وبموسيقى الفاظه خطوة كبيرة نحو الجاحظ، فابن باديس بهذا المعنى يمثل حلقة الوصل بين المدرسة «الحميدية» و«المدرسة الجاحظية».

وفى رأيى ان الاستاذ «عبد الحميد بن باديس» حينما يقرأ الواحد منا البعض من انتاجه النثرى يستطيع أن يلمس كل هذه الخصائص والميزات، كما يمكنه أن يتحسس تأثره بلون من ألوان الكتب القيمة والمصادر النفيسة التى أنتجها أقطاب الفكر العربى على مر العصور خاصة «ديوان الحماسة» لابن تمام: (٧٩٦ ـ ٨٤٣م) و «الموطأ» للامام مالك بن أنس (٧٠٨ ـ ٧٩٥) و «الامالى» لابى على القالى: (٩٠١ ـ ٩٦٧م) و«المقدمة» لعبد الرحمان بن خلدون: (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م) و«دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة» لعبد القاهر الجرجانى: (٩٨٧ ـ ١٠٧٨م) و «الكامل فى اللغة» للمبرد: (٨٢٦ ـ ٨٩٨م) و«نهاية الارب» للنويرى: (٧٣٢ هـ ـ ١٣٣٢م).

أما شعره فهو قليل لكنه أجاد فيه، وهو شعر سهل بين المعانى، بعيد عن الغريب المصطنع تنتزع صوره الصادقة نياط القلوب، وإلى جانب ذلك فهو لم يقرض الشعر صناعة بل أحله من نفسه محل الصدى من الصوت، وان أنت قرأت بعض قصائده تلاحظ نفس الشاعر الثائرة وحساسيته التى ينبض بها كل بيت من أشعاره القوية المؤثرة.

والملاحظ أن معظم أشعار ابن باديس تتمثل فى أناشيد وطنية كان لها وقع فى ايقاظ شعور الوطنيين الجزائريين، اذ حفزتهم إلى الكفاح،

وقادتهم إلى الثورة، وألهبت عواطفهم لنصرة الجزائر والقومية فهل نسى العرب اليوم هذه الابيات الخالدة من قصيدة طويلة تبلغ أبياتها ٤١ بيتا كان ألقاها فى حفل بهيج أقامته جمعية التربية والتعليم الاسلامية بقسنطينة بمناسبة المولد النبوى عام ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧م، وقد أصبحت فيما بعد نشيدا للجزائر..هتف بها ثوارها الابطال عند انطلاق زحفهم الصامد المجيد فى فاتح نوفمبر ١٩٥٤م:

شعب الجزائر مسلم	والى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله	أو قال مات فقد كذب
أو رام ادماجا له	رام المحال من الطلب
يانشء أنت رجاؤنا	وبك الصباح قد أقرتب
خذ للحياة سلاحها	وخض الخطوب ولاتهب
وارفع منار العدل والاحـ	ـسان واصطدم من غضب
يا قوم هذا نشؤكم	والى المعالى قد وثب
كونوا له يكن لكم	والى الامام ابنا وأب
وأذق نفوس الظالمـ	ـين السم يمزج بالرهب
واقلع جذور الخائنـ	ـين فمنهم كل العطب
واهزز نفوس الجامديـ	ـن فربما حى الخشب
نحن الأولى عرف الزما	ن قديمنا الجم الحسب
ومعين ذاك المجـ	ـد فى نسل العروبة مانضب

من كـــــان يبـــــغى ودنـا	فـــعلى الكرامـــة والرحب
أو كــــان يبـــــغى ذلـنـا	فله المهـــانة والحـــرب
هـذا نـظـام حـــيـــاتـنـا	بـالـنـور خـط وبـالـلـهـب
حـــتى يعـود لشـعـبنا	من مـجـده مـا قـد ذهب
هـذا لكم عـــهــدى بـه	حـتى أوجـه فى التـرب
فـاذا هلكت فـصـيـحـتى	«تحـيـا الجـزائر والعـرب»

وهكذا من خلال هذا التحليل السريع لأدب ابن باديس يمكننى أن أقول: إن أدب هذا الرائد الثورى على العموم أدب مستمد من واقع شعبه وهو أيضا جذوة من نفسيته القلقة المضطربة، إنه مجموعة من العواطف الثائرة والافكار المستعرة، برز أحيانا فى مقطوعات موسيقية منسجمة، وظهر بعضه خاليا من الرموز والاحاجى، مبرزا ثقافته الواسعة، وتشبعه بأراء المصلحين العظام أمثال جمال الدين الافغانى (١٨٣٩ ـ ١٨٩٨م) والامام محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) والامير شكيب أرسلان: (١٨٠٧ ـ ١٩٤٦)، ومن خصائصه أنه أدب ينطبع بطابع حياته ووليد ثقافته العامة، وثمرة اطلاعه على الآداب العربية والاروبية، وخلاصة تفكيره فى قضايا كثيرة.. انه أدب عبر به عن فلسفته وعن عقيدته، وعن حبه لوطنه ولارضيته الفكرية.

الصحفى:

يعد عبد الحميد بن باديس من بناة الصحافة العربية الحديثة فى الجزائر، ومن الذين أرسو أسسها هناك، فهو أحد أولئك الذين عملوا فيها

عملا طويلا يتسم بالصدق والثبات على المبدأ رغم ما كان يتلقاه من مضايقات.

أما تاريخ اتصاله بها فهو يعود إلى عام ١٩٢٥، اذ في هذه الفترة شعر بحنين إلى إبراز عمله الاصلاحي الذى شرع فيه بداية من سنة ١٩١٣ بمدينة قسنطينة فأراد أن يعطى عمله هذا صفة الشمول والانتشار حينما يكسبه القدرة على تحدى حدود الجزائر الشرقية إلى كامل الوطن والى كل مكان تحيا فيه الكلمة الطيبة والمبدأ الصادق.

وعلى ضوء هذا الاختيار أصدر ابن باديس في ٢ جويلية ١٩٢٥ أول عدد من جريدته «المنتقد» الذى جعل شعارها: «الحق فوق كل أحد»، كما كتب افتتاحيته بدماء قلبه تحت عنوان: «مبادؤنا وغاياتنا وشعارنا» وقد لخص فيها جملة من المبادئ التزم بها ابن باديس لدى القراء وهذه المبادئ* هى:

(أ) معالجة الوضع السياسى واينارة الرأى العام الجزائرى بأطوار قضية الوطن الكبرى قصد تهيئة جيل واع بمشاكل أمته ومستعد للتضحية والبذل.

(ب) جعل الجريدة منبرا تتخذه الكفاءات الجزائرية لتوضيح آرائها الانتقادية فى أمهات المشاكل التى تتصل بشخصية الامة وبواقعها.

(جـ) تخصيص أركان قارة فى «المنتقد» لتنمية الوازع الاخلاقى والدينى بما يكفل إيجاد تيار فكرى أصيل يحفظ شباب البلاد من التمزق والانزلاق.

ونحن لو أردنا أن نتحسس هذه المبادئ من قلمه، فلنقرأ له هذه الفقرة من هذه الافتتاحية التى احتلت صفحات (من ١ إلى ٥) .. يقول هذا الرائد: «بسم الله ثم باسم الحق والوطن ندخل عالم الصحافة العظيم شاعرين بعظمة المسؤولية التى نتحملها فيه مستسهلين كل صعب فى سبيل الغاية التى نحن اليها ساعون والمبدأ الذى نحن عليه عاملون، وها نحن نعرض على العموم مبادئنا التى عقدنا العزم على السير عليها لا مقصرين ولا متوانين راجينا أن ندرك شيئا من العناية التى نرمى اليها بعون الله، ثم بجدنا وثباتنا وإخلاصنا وإعانة اخواننا الصادقين فى خدمة الدين والوطن».

والملاحظ أن هذه الافتتاحية تعد هامة جدا، لانها أول افتتاحية كتبها هذا الرائد منذ مباشرته للصحافة فى الجزائر.

وتمر الايام كالبرق الخاطف وترى السلطة الفرنسية هناك أن ابن باديس بدأ يشاغبها من طريق آخر هو الصحافة فقررت أن توقف له «المنتقد» فلعله يخاف وتهدأ ثورته أو ينهزم.. لكن من كانت نفسيته كابن باديس الذى تشبع بآراء المصلحين العظام، ودرس الثورات دراسة عميقة لا يتصور عقل منصف أن يسكت أو يلوذ بالصمت فهو من صنف الثوار الذين خلقوا للجهاد والنضال حتى يثبتوا المبادئ التى أمنوا بها واعتنقوها منذ نعومة الاظفار، لايتصور رجل عاقل أن ينهزم ابن باديس أمام هذا الجزء التعسفى الذى اتخذه ضده فقد عاهد ابن باديس منذ عام ١٩١٣ بالمدينة اصدقاءه من الجزائر وغيرها على أن يظل المشعل الذى ينير دروب النصر لكى تحيا الجزائر ويعيش شعبها حرا عزيزا مهما كلفه هذا المسعى من جهد وتضحية.

وفى نطاق مخططه الهادف أصدر ابن باديس بعد أشهر قليلة من نفس السنة التى وقع فيها تعطيل «المنتقد» وهو عام ١٩٢٥ - جريدة أسبوعية تحت اسم «الشهاب» ثم وبداية من شهر فيفرى ١٩٢٢ حولها إلى مجلة شهرية وقد رسم هذا المفكر فى رأس صفحة العدد الأول منها كدليل على قوة روح الاستمرار فى نفسه هذه العبارة التى أصبحت مثلا يحتذى فيما بعد: «تستطيع الظروف أن تكيفنا ولا تستطيع باذن الله إتلافنا».

وظلت مجلة «الشهاب» منذ صدورها إلى ان أوقفها ابن باديس نفسه - بعد نشوب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩) - منبرا تعاطفت جميع القوى التقدمية فى الجزائر، كما كانت من حيث المحتوى والعقيدة والاتجاه الاصلاحى تعد ثالث مجلة رائدة فى الوطن العربى والاسلامى بعد«العروة الوثقى» للسيد جمال الدين الافغانى ومحمد عبده، و«المنار» للمرحوم رشيد رضا.

وحافظت «الشهاب» على هذا المنهج طيلة صدورها : (١٩٢٥ - ١٩٣٩م) فكانت لسان الجزائريين والمدافعة عن شخصيتهم القومية المتمثلة فى: «العروبة والاسلام والجزائر» ومن ينسى وقفة هذه الجريدة الصامدة فى وجه الاستعمار وحملاتها على قوانين التجنيس ودفاعها عن قضايا الشعب ونضالها ضد سياسة التفرقة والتمزق، مما دعا أحد النواب الفرنسيين فى عام ١٩٣٧ أن يحمل عليها حملة شعواء مدعيا أن ابن باديس أصبح من خلال «الشهاب» الناطق الرسمى الذى تتجسم فيه القومية الجزائرية وهو يقصد من هذا القول حمل السلط فى الجزائر على إيقاف هذه المجلة على غرار ايقافها لصحيفة «المنتقد» فى بداية عام

١٩٢٥ فكتب ابن باديس معلقا على هذه المناورة الجديدة قائلا: «ان الشهاب معتز بخطته ثابت على مبادئه وهو يتشرف بأن يكون ممثلا للقومية الاسلامية الجزائرية».

ثم أضاف قائلا:

«إن هذه القومية الجزائرية التى لن تفنى ولن تزول ليست بالحركة الهدامة، ولا هى بالحركة المثيرة المهيجة، كلا بل إنما هى حركة أمة تريد أن تحفظ نفسها، وتصون ذكرى اسلافها، وتحتفظ بميزاتها وتراثها العتيق، وتمد يد الصداقة والولاء والانعطاف والارتباط المتين لدولة الجمهورية إن هى مدت لها يد الصداقة والانعطاف، وعاملتها معاملة الصديق أو الاخ لاخيه أو الوالد لابنه لا معاملة السيد لعبده، أو المخدوم لخادمه..» ويضيف إلى ذلك قوله: «فان كانت لغيرنا كرامة فليعلم ذلك الغير أن لنا نحن أيضا كرامة نغار عليها وإن كان لغيرنا شرف لا يريد أن تمتد اليه يد فليعلم ذلك الغير ان لنا نحن أيضا شرفا رفيع العماد لا نسمح بأن يدنسه أحد [٩٥].

والملاحظ ان الأستاذ عبد الحميد بن باديس كان يحرر معظم أبواب مجلة «الشهاب» وخاصة الرئيسية منها، مرة بامضائه الصريح، ومرة أخرى بامضاء مستعار، زيادة عما كان يقدمه لصحف «جمعية العلماء» التالية فى الفترة التى كان يتولى رآستها وهى: «الشريعة» و«البصائر» و«الصراط» و«السنة».

وكان ابن باديس على صلات قوية بالكثير من أعلام الإصلاح الاسلامى فى المشرق العربى منهم امير البيان شكيب ارسلان الذى كان يدير فى الثلاثينيات مجلة بالفرنسية تحت اسم: «مجلة الأمة

العربية، الذى كان قد أصدرها فى جنيف بسويسرا، وأيضا بالشيخ: «رشيد رضا» صاحب مجلة «المنار» والسيد «محب الدين الخطيب» صاحب مجلة الفتح، وكثيرا ما ينقل من هذه المجلات بعض المقالات والافتتاحيات فينشرها فى «الشهاب» خاصة مايكتبه محب الدين الخطيب، ورشيد رضا، وهدفه من ذلك توثيق عرى الاخوة بين أبناء الوطن العربى الواحد، ومحاولة ربط الجزائريين بتيارات الفكر العربى المعاصر بعد أن ظلت موصدة فى وجوههم منذ ابتلائهم بالاستعمار الفرنسى فى سنة ١٨٣٠م.

وهكذا ترون ان ابن باديس كان يطالع معظم الجرائد والمجلات العالمية وخاصة الشرقية منها وكان يناقش كبار الكتاب ويحرر عشرات المقالات فى مختلف الموضوعات لانه كان يؤمن بشرف الفكر وبدور الصحافة فى اكتساح الابعاد وتنوير العقول والهاب الحماس على نطاق واسع، لذلك اتجه اليها عن اقتناع، وساهم فيها مساهمة فعالة فأذكى بقلمه وبانتاجه الخصب لهيبها المحرق حتى أعطت ثمرتها المرجوة.

أما أسلوبه الصحفى فهو يختلف اختلافا كبيرا عن أسلوبه فى كتابة «التفسير والحديث» وفى الموضوعات الادبية الاخرى.. انه أسلوب منمق وقوى يمتاز بقصر جملة وبتركيزها وهو طافح بالسخرية اللاذاعة خاصة حينما يكون الموقف يتطلب الدفاع عن مقومات أمته وعن أصالتها وشخصيتها.

الخطيب الملهم:

ومن ميزات هذا المفكر الرائد قدرته على الخطابة الارتجالية فقد كان خطيبا مصقعا لايضارعه فيها أحد من أترابه أو أصدقائه فأنت اذا

ما استمعت اليه تلاحظ أن الالفاظ والمعانى تتسابق الى أذنيك من غير التواء أو تعثر وقد ساعدته هذه الموهبة على نشر دعوته الاصلاحية السلفية فى أرض الجزائر وعلى شد وحدة أمته وتماسك أفرادها ويشهد له بهذه الموهبة حتى أعداؤه الذين اندهشوا أمام هذه السيول من الخطب الجماهيرية المؤثرة، فقد تحدثت عنه صحيفة تصدر بتونس هى جريدة «البتى ما تان» بتاريخ ١٩ ماى ١٩٣٧ بمناسبة خطاب ألقاه ابن باديس بتونس يوم الذكرى العشرين لوفاة استاذه البشير صفر فقالت عنه: «.. انه يمثل حقا الزعيم الخطيب، فهو قد ملك مقاليد الكلام، وبصوته النارى يستفز الجماهير فيثير الحروب أو ينزل فى القلوب سكينة السلام، وهو الرجل الذى وصل فى القطر الجزائرى الى درجة التقديس، وتسير وراء خطواته تسعة أعشار الامة».

إن ابن باديس ارتفع فى ميدان الخطابة الى درجة لايضاهيه فيها أحد فى بلاده وإذا كان جمال الدين الافغانى يقول عن عبد الله النديم: (١٨٤٥ ـ ١٨٩٦م) الذى كان أول خطيب مصرى وقف فى وجه الحكام وفتح فاه بالكلام فى مكان عام حتى لقب «بخطيب الشرق» و«محى الوطنية فيه».. «ما رأيت مثل النديم طوال حياتى فى توقد الذهن، وصفاء القريحة، وشدة العارضة، ووضوح الدليل ووضع الالفاظ وضعا محكما بازاء المعانى ان خطب أو كتب..» فانى لا أكون مغاليا أن قلت: «إن ابن باديس أحيا فى الجزائر فن الخطابة وأعاد إلى الاسماع ذكرى مجد الخطابة فى العصور الأولى للامة العربية واستطاع أن ينبه الافكار الى موضوعات حيوية وأن يناقش المستبدين فتحرك الجزائريون للثورة ونهضوا من أجل نصرة القومية والتراث ومحاربة الاندماج

والتجنيس والانحرافات السياسية حتى استجاب القدر لثورتهم وفازوا بأمانيهم فى العزة والحرية والاستقلال: (١٩٦٢).

على الطريق مع الأحرار:

أراد عبد الحميد بن باديس أن يكون رجل إصلاح فى أمته بعد عودته من بلاد المشرق والتقائه بأعلام الفكر فيها أمثال: محمد كرد على والطاهر الجزائرى ومحمد البشير الابراهيمى، فانكب على ميدان الاصلاح وعالجه بطرق شتى تارة بدروسه الدينية التى كان يلقيها بجامع الاخضر بقسنطينة طيلة اثنتى عشر عاما (١٩١٣ ـ ١٩٢٥م) وتارة بانتمائه الى الجمعيات وتأسيسها مثل «جمعية العلماء المسلمين» الذى أسسها عام ١٩٣١ وتارة بالقاء الخطب لانهاض الشعب، وابراز أصالته وشخصيته إنه اتخذ هذه الطرق والأساليب لتحقيق الهدف الذى يسعى اليه وهو غرس الثقة فى نفوس الجزائريين، وتوجيههم ضد الاستعمار، وضد المتألبين على شخصية الجزائر الكارهين لكل اصلاح، وكانت خطته الاصلاحية تقوم على شيئين اثنين:

١ ـ بعث حركة تجديد دينية وجعلها فى خدمة قضية الجزائر الوطنية.

٢ ـ العمل على نشر اللغة العربية باعتبارها مقوما من مقومات الامة إن هدف ابن باديس من هذه الخطة هو ايقاظ الوعى الانسانى:

وعى الحرية والكرامة فى نفوس أبناء أمته، ومن البديهى أنه متى استيقظ الوعى تبعه السعى والاقدام، وزال فتور العزائم وتراخى الهمم، وآنذاك تستعد النفوس الطامحة لخدمة الشعب.. فوعى الحرية يحتاج

أولا وبالذات إلى انصار وأعوان وأول أعوانه الثقافة والعلم اذ بهما كما قال عبد الرحمان الكواكبى يدرك الناس: «إن الحرية أفضل من الحياة نفسها وأكرم، وأن الشرف أعز من المنصب والمال (٩٦).

وقد سئل ذات مرة من طرف أحد تلاميذه: «بأى شئ تحارب الاستعمار؟»

فأجابه : «أنا أحارب الاستعمار لأننى أعلم وأهذب ومتى انتشر التعليم والتهذيب فى أرض، أجدبت على الاستعمار وشعر فى النهاية بسوء المصير(٩٧).

فابن باديس من هذه الوجهة اتجه فى المنهج الذى سار فيه أحرار العالم الاسلامى بوحى من الرائد المصلح جمال الدين الافغانى فكان من دعاة الحرية والاشتراكية وانصار التعريب، ومن موقظى الروح والوجدان، وباعثى التجديد والثورات للجماهيرية أمثال: محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) وعبد الرحمان الكواكبى: (١٨٤٨ ـ ١٩٠٢) وعبد العزيز الثعالبى: (١٨٧٥ ـ ١٩٤٤م) وقاسم أمين: (١٨٦٥ ـ ١٩٠٨) ومحمد البشير الابراهيمى: (١٨٨٩ ـ ١٩٦٥) والطاهر الحداد: (١٩٠١ - ١٩٣٥م) وغيرهم.

وفى رأيى أنه بالمقارنة بينه وبين هؤلاء العظام الذين أوردتهم نستطيع أن نقارنه بشخصية الامام محمد عبده من عدة وجوه:

١ ـ ان الاستاذ الامام محمد عبده كان أول صوت ارتفع فى المشرق العربى داعيا إلى نشر العدالة والثقافة بين الفقراء، وابن باديس

الذى ابتدأ كفاحه بعد وفاة الامام محمد عبده بثمانى سنوات (١٩١٣م) قد سلك مسلكه فى المغرب العربى.

٢ - كما أن الاستاذ الامام محمد عبده كان يرى أن التربية هى السبيل القويم للاصلاح السياسى..

وابن باديس نفسه كان يرى هذا الرأى لذلك رأيناه يتجه فى كفاحه ولمدة ٢٨ عاما فى ميدان التربية والتعليم، فيقارع السلط الفرنسية وخاصة «شوطان» وزير داخليتها الذى أصدر قرارا فى ٨ مارس ١٩٣٨ يقضى اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية فى الجزائر امتدادا للقانون الجائر الصادر فى ١٩٠٤/١٢/٢٤ الذى يحجر تعليم العربية فى مدارس الجزائر.

٣ - وكلاهما كان داعية حضارة وتقدم وخير بين أبناء البشر.

٤ - ونحن عندما نرى الاستاذ الامام محمد عبده يدخل ميدان الصحافة ويغرم بقراءتها، ويناقش كتابها، ويكتب فى جريدة «الوقائع المصرية» ويلهم الثورة العرابية: (١٨٨٢) وينشر دعوة (العروة الوثقى) (١٨٨٤م) ويعلم فى الأزهر، ويصدر الفتاوى، ويشترك فى جلسات المجالس الدينية والسياسية ويمقت الاستعمار الانجليزى، فان عبد الحميد بن باديس أيضا كان له نفس المنهج ونفس الاسهام، فكان واعيا واسع الافق. كثير النشاط وله أصدقاء كثيرون، كما كان يراسل النبهاء من المفكرين ويصدع بالحق، ويقاوم التبشير المسيحى بشجاعة وصمود، ويؤسس الصحف والمجلات، ويدافع عن شخصية الجزائر، ويدعو إلى التمسك بالدين

وبالمحافظة عن اللغة العربية باعتبارها مقوما من مقومات الامة .. أو ليس هو القائل فى عام ١٩٣٩ م.«.. ان هذا اللسان العربى العزيز الذى ختم الدين، وخدم العالم، وخدم الانسان ، هو الذى نتحدث عن محاسنه منذ زمان، ونعمل لإحيائه منذ سنين فليحقق الله أمانينا» [٩٨] ثم مضى فى كفاحه ضد سياسة «التحريف الثقافى» و«التغريب» فكانت حملة ضارية فى مجلة «الشهاب» وجرائد جمعية العلماء المسلمين حتى آستجابت فرنسا لنداءاته، وتراجعت أمام وقفة أبطال «جمعية العلماء» وعلى رأسهم رائدنا ابن باديس فأعلنت فى ٢٠ سبتمبر ١٩٤٧ ترسيم اللغة العربية فى التعليم الثانوى وذلك بعد ١١٧ سنة من مطاردتها لهذه اللغة.

أجل كان قرار التراجع نتيجة لوقفة «جمعية العلماء» التى تأسست بقسنطينة فى عام ١٩٣١ برئاسة هذا المفكر الشجاع بعدما تبين ازدياد المدارس الابتدائية التابعة لها فى عموم البلاد فأصبحت تعد بالعشرات كما أصبح تلاميذها يزيدون على الخمسين ألف طفل.

وهكذا كانت أيام هذا المفكر الرائد فهى حافلة بآيات الشجاعة والوطنية الصادقة والتمسك بالعزة، والحرص على كرامة الانسان.. انه يريد الدين الحى النافذ الاثر و«الدين عنده هو فلسفة حياة وبدونه لا تنهض الشعوب، فقوام النهضة عنده أمران أساسيان: «الدين والعلم» الدين الحى والعلم الملهم الواعز، ولن تكون هناك عودة إلى ماضى الجدود فى أيام ازدهارهم الا بهذين الأمرين اذ لابد من أن يسبق الاصلاح السياسى ثورة تربوية وأخلاقية ليتم بها اعداد جيل ثورى

قادر على تحمل رسالته والقيام بواجباته فى معركة البناء «وإثبات الذات»، وفرض الشخصية.. وعلى منهج وطرائق ومثل الاحرار من أعلام الحركة السلفية فى المشرق الاسلامى عاش ابن باديس وعمل ألم يقل فى محاضرته بقسنطينة فى عام ١٩٣٧ تحت عنوان «لمن أعيش؟» وأمام من لبوا دعوة «جمعية التربية والتعليم الاسلامية» هناك أنه: «يعيش للاسلام وللجزائر؟»

ألم يعش عبد الحميد بن باديس ملتزما بهذا الاثر الذهبى الخالد حتى أثبت وجوده كمفكر واع ورائد من رواد الاصلاح فى المغرب العربى؟

الهوامش

٨٣ ـ ابن باديس فى ذكراه الخامسة عشرة «نشرة جمعية الطلبة الجزائريين»: تونس ١٩٥٥ ص ١١.

٨٤ ـ نفس المصدر ص ٧.

٨٥ ـ محمد الصالح بن رمضان: «نشأة ابن باديس» مجلة افريقيا الشمالية س ١ ع ٤ ص ٤٣ (ماى ١٩٤٩).

٨٦ ـ مجلة «الشهاب» ع أكتوبر ١٩٣٤.

٨٧ ـ جريدة «البصائر» ع ٢٢٦: (١٧/٤/١٩٥٣).

٨٨ ـ مجلة «الشهاب» ماى ١٩٢٩ ص ٢٧ ـ ٣٣.

٨٩ ـ نفس المصدر عدد فيفرى ١٩٣٦.

٩٠ ـ راجع كتاب «ابن باديس ـ حياته وآثاره» لعمار الطالبى جـ٣ طـ الجزائر ص ١٥٢ ـ ١٧٤.

٩١ ـ مجلة مجمع اللغة العربية : دراسة للبشير الابراهيمى طـ القاهرة ١٩٦٤ ع ٢١ ص ١٤٠ ـ ١٤١.

٩٢ ـ ع : (جوان ـ جويلية) ١٩٣٨.

٩٣ ـ راجع العدد الخاص من مجلة «الشهاب» : جوان ـ وجويلية ١٩٣٨.

٩٤ ـ راجع: الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية: للدكتور محمود قاسم ط مصر ١٩٦٧ ص ٨٣.

٩٥ ـ الشهاب ع ماى ١٩٣٧.

٩٦ ـ «رواد الوعى الإنسانى فى الشرق الإسلامى» للدكتور عثمان أمين ص ٩٧.

٩٧ ـ جريدة «البصائر» س٢ ع ٢٤: (٣/٥/١٩٤٨).

٩٨ ـ جريدة «البصائر» س٤ ع ١٧١ ص٥: (٢٢/٦/١٩٣٩).

محمد البشير الإبراهيمى

١٨٨٩ـ ١٩٦٥م

تاريخ

المغرب العربى حافل بالرجالات وبالمواقف المشرفة: فكلما أردت أن أتصفح هذه المواقف وأتقصى سير هؤلاء الرجال الا وتراءت لى صفحات مجيدة من تاريخ هذه المنطقة العربية المناضلة.

إن عشرات الاعلام ممن أنجبهم المغرب العربى فى مجال النهضة الفكرية والسياسية وسموا طريق التحدى. فنضالاتهم المتعددة ـ هى وان اختلفت أسلوباً ـ فهى إضافة جديدة فى معركة إثبات الذات وفى هذه الصحوة التجديدية والإصلاحية.. ذلك أنه بفضل مواقف هذه القلة أمكننا أن ننتصر على اليأس، وعلى التجنيس، وعلى محاولات الإبادة وسياسة (فرق تسد).

وأثبتت الأيام استماتة هذه القلة وإصرارها على الكفاح، كما أثبتت أيضا أن الحرية هى القضية الأولى فى مجال الفكر على صعيد المغرب العربى.

وسارت معظم أفكار هؤلاء فى خط واحد مع العمل الوطنى بل وأمدته بشحنات جديدة... وبالقوة والحيوية وخطا هؤلاء نفس الدرب وأمكن لهم - وبفضل ما حافظوا عليه من مثل ومن هدى عقائدى - أن يطوروا العمل النضالى على شتى الاصعدة وأن أعد من هؤلاء.. أذكر على باش حانبة والأمير عبدالقادر والطاهر الحداد وعبدالعزيز الثعالبى وعلال القاسي، وابن باديس ومحمد البشير الإبراهيمى ومالك بن نبى وعلى البلهوان وغيرهم وغيرهم... لقد كان لكل جزء من أجزاء المغرب العربى مواقف مشرفة وصلبة، وشخصيات عاشت من أجل الغير.. سوف نبقى أوفياء لها لأنها كشفت عن مساوئ الاستعمار الفرنسي. وفوضت فى إباء ما كان يريد الاستعمار فرضه على شعوب المنطقة بالقوة والقهر.

ويعد محمد البشير الإبراهيمى واحد من هؤلاء الذين ناضلوا من أجل تحرير المغرب العربى وساهموا بقسط وافر فى دعم الشخصية الجزائرية والثقافة العربية والدينية بها.. فهو أنموذج حى للمثقف الملتزم الواعى.. وهو زعيم فى مجال الإصلاح والسلفية والصحافة. وهو مرب أصيل سخر قلمه للدفاع عن قضية الحريات، وعن الجزائر وتونس، وعن الإنسان العربى الذى يطمح للعدل الاجتماعى وللحرية والكرامة.

ملامح من حياته:

ولد الإبراهيمى بمدينة سطيف ونشأ فى أسرة دينية، وتلقى تعلمه الأول على جماعة من العلماء كانوا يعتمدون على الاجازات من مشائخهم أمثال: محمد أبو القاسم البوجليلى، ومحمد أبو جمعة القلى،

وعمه الشيخ محمد المكى الإبراهيمى الذى اعتنى به اعتناء خاصا فيما بين عـام ١٨٩٦و ١٩١٢، إذ فى هذه السنة هاجـر إلى المدينـة المنورة ملتحقا بأبيه، الذى استقر فيها منذ ، نة ١٩٠٨ فرارا من ظلم الفرنسيين.

ومن المعلوم أنه فى أقطار ' مشرق العربى وفيـما بين أواخـر القرن التاسع عشر وأوائل القرن الد ـرين كانت هناك بذور التحـدى.. وكان هناك نداءات لتحـرير الوطن العـ بى، من الاستعمار .. وأصوات تدعـو إلى الحـفاظ على الـهوية العـربية والدعوة إلى التـحرير هذه ظلت هى الأخـرى مقـرونة بنداءات ثورية تدعو إلى اجتـثاث التخلف الفكرى، وتحرير العقل من الأوهام، والرجوع بالدين إلى صفائه وإلى ينابيعه لأولى.

وقاد هذه الدعوة الفكرية، أولا: جمال الدين الافغانى [٩٩] ثم جـاء من بعده تلميذه محمد عبده [١٠٠]، ثم رشيد رضا، والأمير عبدالقادر الجزائرى، الذى سبق له أن استـقر بالمشـرق مع العـائلات المهـاجرة إلى هنـاك منذ عـام ١٩١١ على اثـر تنفيـذ التـجنيـد الاجـبارى فى الجزائر [١٠١].

ويبدو من وطنية المهاجرين الجزائريين إلى المشرق العربى انهم لم يفارقوا وطنهم إلا بـالجسد إذ بقوا دائمـا أوفياء إلى قضية وطنهم العادلة وإلى الشخصية الجزائرية العربية.

والملاحظ أن هذه الهجرة مكنت من وضع بذرة (جـمعيـة العلماء المسلمين الجـزائريين) وذلك فى لقـاءات (المدينـة) الليليـة التى كـانت

تنتظم بين المصلحين: عبدالحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمى فى سنة ١٩١٣ وتثبت هذه الوثيقة التى كتبها هذا المفكر جدوى (اسمار المدينة) وما حققته من فوائد جمة للجزائر العربية، التى وهبت أكثر من مليون شهيد فى سبيل استرداد حريتها وشخصيتها.

يقول الإبراهيمى فى هذا الشأن:

. كنا نؤدى صلاة فريضة العشاء الأخيرة كل ليلة، فى المسجد النبوى ونخرج إلى منزلى فنسمر، مع الشيخ ابن باديس منفردين إلى آخر الليل، حين يفتح المسجد فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح. ثم نفترق إلى الليلة الثانية إلى نهاية ثلاثة الأشهر التى أقامها الشيخ بـ (المدينة المنورة).. كانت هذه الأسمار المتواصلة كلها تدبيرا للوسائل التى تنبض بها الجزائر ووضع البرامج المفصلة لتلك النبضات الشاملة التى كانت كلها صورا ذهنية تتراءى فى مخيلتنا، وصحبها من حسن النية وتوثيق الله ما حققها فى الخارج بعد بضع عشر سنة.

وأشهد الله أن تلك الليالى من عام ١٩١٣ ميلادية، هى التى وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.. [١٠٢].

جهاده السياسى:

قلنا إن الشيخ محمد البشير الإبراهيمى التصقت حياته ونضالاته بشعبه ربما يطمح اليه هذا الشعب من تحرر ورقى، وسؤدد، لذلك بادر بالتخطيط منذ عام ١٩١٣ لبعث حركة تربوية واصلاحية وسياسية بالجزائر مع زميله المصلح الشيخ عبدالحميد بن باديس [١٠٣] وتوجت

أعمال الرجل فى شهر ماى ١٩١٣ على أصح الأقوال : لتأسيس (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) إذ فى هذا الشهر اجتمع اخوة الصفاء: عبدالحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمى والأستاذ الطيب العقبى وأسسوا (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين).

أما أبرز رجالات (جمعية العلماء) من غير المؤسسين فهم: مبارك الميلى والعربى التبسى، ومحمد السعيد الزاهرى، والهادى السنوسى الزاهرى، والأمين العمودى، والفضيل الورتلانى، ومحمد العيد والمولود بن الصديق الحافظى.

ومؤتمر (جمعية العلماء الجزائريين) دام أربعة أيام فى (نادى الترقى) بالجزائر العاصمة واختيرت فترة التأسيس فى أيام مبالغة فرنسا فى احتقار المثقف المسلم.. وواجه رجال الفكر والدين بالجزائر هذه المحنة بشجاعة فائقة فكان ردهم ردا عنيفا وصارخا بإعلانهم تأسيس (جمعية العلماء) وفى أيام المؤتمر هذه تجلت وقفة البشير الإبراهيمى الشجاعة حينما سلط الأضواء على الدواعى التى جعلتهم يصرون فى دعوة الفقهاء لحضور هذا التجمع الدينى الضخم للاعلان عن هذا المولود الجديد.. ويؤرخ الإبراهيمى لهذا الحديث بقوله: (دعونا فقهاء الوطن كلهم، وكانت الدعوة التى وجهناها اليهم باسم الأمة كلها، ليس فيها اسمى ولا اسم ابن باديس لأن أولئك الفقهاء كانوا يخافوننا . كانوا يخافوننا لما سبق لنا من الحملات الصادقة على جهودهم ووصفنا إياهم بأنهم بلاء على الأمة وعلى الدين لسكوتهم عن المنكرات الدينية وبأنهم مطايا للاستعمار الذى يذل الأمة ويستعبدها باسمهم [١٠٤].

هكذا بدأ الإبراهيمى كفاحه فى الجزائر سنة ١٩٣٠ ثم عمل مع عبدالحميد بن باديس فى (جمعية العلماء) ثم خلف ابن باديس فى مجال جمعية العلماء وتعرض من أجل نضالاته السياسية للسجن والنفى، وترك الجزائر فى جانفى ١٩٥٢ حيث طاف بالمشرق العربى معرفا بقضية بلاده وحاثا الرأى العام العربى إلى الوقوف مع الجزائر والتصدى لمؤامرات التغريب فى المغرب العربى الكبير.

نداءات الإبراهيمى فى جولته بالمشرق العربى كانت حارة وهادية ومؤثرة.. هو يخطب فى كل محفل بلسان عربى فصيح مشهرا بمظالم الفرنسيين ومعرفا بتركيبة المجتمع الجزائرى ومدافعا عن اللغة العربية فهذه اللغة ليست بغريبة ولا دخيلة بل هى فى دارها وبين حماتها وأنصارها وهى ممتدة الجذور مع الماضى مشتدة الأواصر مع الحاضر.

وأن الجزائر متعلقة بالإسلام، وإن هذا الدين متغلغل فى النفوس لأنه ليس فيه جبر ولا قهر، وكذب من يدعى أن الفتح الإسلامى فيه روح استعمارية (وان القبائل مسلمون عرب، كتابهم القرآن يقرؤونه بالعربية ولا يرضون بدينهم ولا بلغته بديلا،..[١٠٥]

وفى مدة طوافة بالمشرق عمل أستاذا للأدب العربى بالمدرسة السلطانية بدمشق فيما بين أعوام ١٩١٧ ـ ١٩٢٠

فكر محمد البشير الإبراهيمى:

إن محمد البشير الإبراهيمى مفكر دون ريب، ولو حاولنا استقصاء ميزات فكره لوجدنا فيه ملامح الإصلاح بادية للعيان، فمن خلال

خطب الرجل ومقالاته، ودراساته ، وسوانحه، و (عيون بصائره) تبرز لنا قيمة فكره الهادف.. هذا الفكر الذى كان وليد الصراع الطويل مع المستعمر ومع عملائه..هو فكر دينى لكنه يتميز بأنه يحمل لواء الدعوة الإصلاحية التى نادى بها قادة الإصلاح في المشرق العربى أمثال: الأفغاني، وعبده، ورشيد رضا ومحمد بيرم الخامس.

وشارك بهذا الفكر فى مختلف التظاهرات الوطنية، التى كانت ضوءا لاستجلاء المستقبل، وحافزا على العمل لاجتثاث التخلف الفكرى، وهكذا نلمس فى كتابات الرجل الدعوة تلو الدعوة لإعادة تنظيم المجتمعات العربية والإسلامية وتجديدها بما يتلاءم وسمات التجديد فى مفهوم الدين الحق.

إن الدين ليس شعارا ولا ركودا، بل مقوم من مقومات ابراز الهوية العربية الإسلامية ، وان الدين لم يكن فى يوم متخلفا بل المسلمون لما ابتعدوا عنه اصبحوا هم المتخلفين.

وحشد الإبراهيمى فكره فى مقاومة دعوى (الفرنسة) الفكرية وسياسة التغريب، ووجه الشباب الجزائرى عن طريق قلمه الى الاعتزاز بالشخصية العربية، وبالتاريخ الإسلامى وبالقيم المثلى.. وحذر الفرنسيين من تماديهم فى فرض سياسة التفقير.. فالجزائر فى فكر الإبراهيمى لها ثروة ولها ارتباط بالعالم العربى ولها لغة عريقة هى لغة القرآن، ولها مجد وأصالة وتراث.

ان الدعوات المتوالية والرامية الى محو الشخصية الجزائرية وطمسها ونبذ تقاليدها وتاريخها هى دعوات مبتورة لا يكتب لها النجاح بالمرة

ولذا لابد من وقفة شجاعة لمجابهة الخصم حتى ولو يستشهد من كل عائلة جزائرية شخصان أو ثلاثة.

وفكر البشير الإبراهيمى زاخر بالقضايا والطموحات الشعبية.

يتطلع فى كتاباته إلى أن تكون لغته العربية رسمية فى الجزائر، ويطمح إلى أن يحافظ الشمال الافريقى على عروبته (١٠٦) لأن من يقدح فى عروبة هذه الأقطار هو حجة عليه، لأن عروبة هذه الأقطار متأصلة وعريقة.. هى كالجسد الواحد إذا ألم بجزء من أجزائه حادث،أو نزلت به مصيبة، تداعت له سائر الأجزاء بالنصرة والغوث، فإذا ما أنكر الاستعمار عروبة الشمال الأفريقى بالقول أو امل لمحوها بالفعل فهو مخطئ وان التمادى فى هذا هو عناد للحق وبناء للشر.

وكتب الإبراهيمى عن «حقوق الجيل الناشئ وحقوق المعلمين الأحرار وعن الشبان والزواج، وعن الصداق وهل له حد، وعن «الإسلام» وعن محنة مصر وعن أثر الأزهر فى النهضة المصرية وعن محمد الطاهر بن عاشور، وعن المنصف باى وعن ليبيا وفلسطين والمغرب الأقصى وعن كثير من الشخصيات العربية والجزائرية (١٠٧)

فمن خلال دراساته وسوائحه وخواطره واسجاعه، نستنتج شيئا هو ان الشيخ الإبراهيمى كاتب قدير يصور ما يضطرب فى خاطره من ذكريات ويدعو إلى نصرة القضايا العادلة ويغترف من أنهار الماضى العربى الإسلامى.. أسلوبه قوى، ويجنح أحيانا إلى السجع دون أن يكون ذلك منه تكلفا وتصنعا وإنما هو أمر طبيعى بالنسبة إلى أديب

ومفكر متن لغته من أساليب فحول الشعراء عبر العصور الأدبية المختلفة [١٠٨].

الإبراهيمى رئيسا لجمعية العلماء

لما حلت الكارثة بموت ابن باديس ١٩٤٠ واجتمع من استطاع من العلماء بقسنطينة لتوديع الفقيد وقع الاتفاق على أن يخلف نائب الرئيس البشير الإبراهيمى الشيخ ابن باديس فيصبح رئيسا بمجرد ما أن يفرج عنه.

وتحقق هذا الحلم بالافراج عنه فباشر سلطته فى رئاسة العلماء فكان كما ذكر المؤرخ الجزائرى أحمد توفيق المدنى: «الرئيس»، وكان المعلم وكان الصحفى وكان الكاتب وكان الخطيب وكان البانى وكان المبشر وكان والله كل شئ.. وما رأت جمعية من الجمعيات رئيسا كالبشير الإبراهيمى.. [١٠٩]

فمن خلال هذه الشهادة من مؤرخ جزائرى معاصر لازم الإبراهيمى وكان رفيقا له استطيع أن أقول: (أن دور الإبراهيمى فى جمعية العلماء كان رياديا فكأن المؤرخين اثبتوا جرأة هذا المفكر واخلاصه واندفاعه فى جعل جمعية العلماء تشد أزر الجزائريين وتعم مسيرتهم التربوية ثم النضالية.

انحصر عمله فى البداية على احلال العربية محلها اللائق. ولطالما كانت هذه أمنيته منذ أيام إقامته فى المدينة والشام باعتبار أن العربية هى لغة حية ومتطورة ومن أصلح اللغات فى إشاعة الفكر والثقافة للجميع.

ثم اتسع عمله على ابراز مبادئ الجمعية وتعميق عملها.. يذكر أحمد توفيق المدنى فيقول: «اندفعت بجرأة غريبة وسط حماس شعبى منقطع النظير، تؤسس المدارس للبنين والبنات، والحكومة مشدوهة حيرانه لا تدرى أتقاوم المدارس مقاومة عامة، أم تتساهل معها، وهى مدركة خطورة العمل وعمق جدواه. فكانت تتساهل فى بعض الجهات وكانت تضطهد المدرسين ورجال المدارس فى جهات اخرى. والمركب سائر سيره تحت ريح شعبية رخاء تدفع بالشراع إلى ساحل النجاة والسلامة وهكذا تمكنت الجمعية من تأسيس ١٧٠ مدرسة عربية حرة تعلم الدين الصحيح والتاريخ الإسلامى والعلوم العصرية وبلغ عدد تلاميذها كل سنة ما يزيدعن الخمسين الفا بين ذكور واناث وكونت لهم طبقة صالحة من المدرسين أغلبهم من خريجى الجامعة الزيتونية بتونس جاوز عددهم فى المراحل الأخيرة تسعمائة معلم..

وفى عهد رئاسة الإبراهيمى لجمعية العلماء تم إنشاء معهد ابن باديس بقسنطينة، كما تم تجنيد مئات المتخرجين لتعليم أبناء الشعب، وتم تنظيم حملة واسعة ضد البدع والخرافات والضلالات بواسطة الخطب والمحاضرات ودروس الوعظ والارشاد فى المساجد والأندية.

ورفعت جمعية العلماء عدة مطالب للسلط الفرنسية لـ:

(أ) رفع يدها على المساجد لتستعمل هذه المساجد فى تعليم الأمة دينها ولغتها.

(ب) استقلال القضاء الإسلامى فى الأحوال الشخصية.

(جـ) وتسليم أوقاف الإسلام إلى الجزائريين

(د) وعدم تدخل الحكومة في تسمية رجالات الدين [١١٠]

ويبدو من الوسائل التى استعملها الإبراهيمى لتحقيق هذه الأهداف انها تقريبا نفس الوسائل التى اتخذها ابن باديس وجماعته مع فارق وحيد هو أن نشاط الجمعية كان أكثر تنظيما واحكاما من ذى قبل.

ومن مواقف الإبراهيمى الشجاعة ثباته فى المحنة مع ابن باديس يوم تعرضت جمعية العلماء الجزائريين لادعاءات المولود الحافظى وجماعته الذين أحدثوا شقاقا فى الجمعية وهاجموا أعماقها فى الصحافة مثل: (الاخلاص) و (البلاغ) و (المعيار) (١٩٣٣) ... وقف الإبراهيمى وابن باديس والميلى ضد جمعية علماء السنة فكانت خصومات صحفية عنيفة.. وكانت مقالات هؤلاء الثلاثة نارية على صفحات (الشهاب) وفى النهاية كان النجاح من نصيب أبطال (جمعية العلماء).

وتواصل سعى (جمعية العلماء) فى خدمة الأمة وتفجير وعيها عن طريق الصحف كـ (البصائر)، و (الشهاب) و (السنة) و (الشريعة) (الصراط) وبالرغم من ان هذه الصحف قد توقف صدورها طيلة الحرب العالمية الأخيرة فان جولات الإبراهيمى فى ربوع الجزائر أثناء رئاسة الجمعية كشفت له عن لهفة الجزائريين إلى إصدار هذه الصحف من جديد خاصة جريدة (البصائر) التى وقع تعطيلها من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٤٤ .

وهكذا رأينا الشيخ الإبراهيمى يستأنف إصدار «البصائر» عام ١٩٤٧ ويكتب فى استهلال العدد الأول فيقول: (.. ولقد اشتد شوق العالم الإصلاحى إلى جريدته. واتصل حنينه، وطال انتظاره، وأصبح - لتعلقه بها - يوجه العتاب القاسى الى المسؤولين عنها..، لأنه كان يرى فيها مددا من النصرة، وفيضا من القوة، وكانت اعدادها تحمل اليه حقائق الدين الإسلامى ونفحات البيان العربى، وكان يرى من مقالاتها صواعق مرسلة على المبتدعة والظالمين ويجد فى قراءتها سلوة الضاعن وأنس المقيم.

إن (البصائر) فى حقيقتها فكرة استولت على العقول، فكانت مشدودة العقد ببرهان القرآن، ثم فاضت على اسلات الألسنة فكانت كلاما مشرق الجوانب بنور الحكمة.

شخصية الإبراهيمى

تميزت شخصية الإبراهيمى بكل ما أسلفنا.. فهى شخصية ثرية وموهوبة بنضالاتها الشاملة الأنظار ووجهت الشباب الى التعلق بالشخصيات الغنية ذات الفكر الواعى.

وبالرغم من أنه كان لا يتناول النواحى الأدبية إلا لماما فإنه كان يفيض القول فى النواحى الأخرى السياسية والتعليمية والاجتماعية وأسلوبه فى كل ما كتب هو من نوع الأساليب الأدبية الكلاسيكية المتينة ولو بحثت عن السبب فى هذا لوجدت أن هذا الكاتب ما هو الا رجل من الناس تأثر كثيرا بما قرأ وحفظ من مقامات ودواوين ومجموعات أدبية.

وفى رأيى تبدو قيمة كتاباته فى «البصائر الثانية» فهى التى دبج فن القول فيها، وقدم فيها نموذجا من ذهن أديب ومفكر فى أسلوبه الحريرى وبديع الزمان الهمذانى مثل مقاماته التى تحمل عنوان (سجع الكهان [١١١] .

ومن مميزات هذا المفكر ولوعه بالغريب والسجع لكن هذا الإيلاع جعله يرتكب هنات أدبية ما كان ينبغى له أن يقع فيها وهو الكاتب القدير الذى سلك فى بعض كتاباته مسلك أسلوب المعرى فى (لزوم ما لا يلزم) .. فهل يمكننا أن نسكت عن تعبير ملفق وسوقى كهذا مثل «وبالمغيرات صبحا عليها التجافيف».. فكيف نرضى بتعبير غير صالح كهذا من رجل دين حاول أن يحاكى أسلوب القرآن ؟ ..

يبدو لى أن هذه الهنات الأدبية سببها هو أنه أراد إشباع نهمة للسجع، ومما لا شك فيه أن هذا يعد عيبا ونقصا فى أساليب الكتاب خاصة الكبار منهم. إن الإبراهيمى فى رأيى أراد أن يسجل تفوقا فى أساليب الكتابة ،وان يثبت قدرته حتى ولو حاكى أسلوب القرآن.

هو لشدة تأثره بالقرآن أقتبس منه وهذا فى حد ذاته ليس بعيب وهو حق مشروع لكن ما أثقل (التجافيف) التى أضافها إلى اقتباسه.

فالإبراهيمى له بعض الهنات الأدبية لكن له أيضا روائع بليغة فى أسلوب بديع التصوير،، وعميق التأثير، وجاءت هذه الروائع الخالدة حتى فى أسلوبه المسجوع كـ: مقامة مناجاة مبتورة لدواعى الضرورة.،[١١٢]

إذن فمحمد البشير الإبراهيمى شخصية جزائرية وعربية ثرية فرضت نفسها على الساحتين الفكرية والسياسية فجعلتنا نسرع الخطى لنجمع جهودها خشية التلف والضياع، ولما بحثنا واستقصينا الخطى وجدنا أن هذه الشخصية الفكرية أحبت تونس، وتلقت معارفها بجامع الزيتونة بتونس، وكتبت أيضاً عن القضية التونسية وعن الجهاد التونسى، هى ذات ثقل بارز فى حياة الدين والفكر والإصلاح والسياسة على صعيد المغرب العربى.

وبالإضافة إلى هذا فهو خطيب مصقع، وأديب واسع التفكير، ومصلح اجتماعى ومرب أصيل، وصحفى من طراز رفيع خاصة من عام ١٩٤٧ حين تألق نجمه فى «البصائر» الثانية.

إن أعمال هذا المصلح الدينى الكبير والجانب الفكرى من نتاجه يكشفان لنا أن البشير الإبراهيمى المتوفى فى سنة ١٩٦٥ هو بذرة من بذرات كثيرة تتواجد هنا وهناك على أرضنا المغربية ذات الماضى الحافل بالبطولات وأرض الحضارة والنهضة قبل الإسلام وبعده.

الهوامش

٩٩- جمال الدين الأفغانى : (١٨٣٩- ١٨٩٧) هو مصلح كبير؛ كانت مواقفه دائما حرة وضد الإقطاع والاستغلال.

١٠٠- انظر دراسة عنه فى (رواد الوعى الإنسانى فى الشرق الإسلامى(: عثمان أمين ط مصر ١٩٦١ص ٨٠ .

١٠١- انظر مجلة الثقافة الجزائرية س ١٣ ع ٧٥ (مايو ويونيو ١٩٨٣) صفحات (٢٦٣ - ٢٧٥).

١٠٢- مجلة مجمع اللغة العربية ع ٢١ ص ١٤٠و ,١٤١

١٠٣- راجع ابن باديس حياته واثاره: عمار الطالبى ج ٣ ط الجزائر .

١٠٤- مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢١٠ فى القاهرة .

١٠٥- انظر جريدة (البصائر) ع ٤١ سنة ١٩٤٨ .

١٠٦- جريدة (البصائر) ع ١٥٠ سنة ١٩٥١ دراسة بعنوان: (عروبة الشمال الإفريقى).

١٠٧- انظر (عيون البصائر) ط الجزائر سنة ١٩٧٠ .

١٠٨ انظر (نهضة الأدب العربى فى الجزائر: (١٩٢٥ -١٩٥٤) للدكتور عبدالملك مرتاض الجزائر ١٩٦٩ ص ١١٩ .

١٠٩- حياة كفاح : أحمد توفيق العدنى، القسم الثانى ط الجزائر صفحات ١٩٧٤ص ٣٣٧.

١١٠ - جوانب من الحياة العقلية والأدبية فى الجزائر لمحمد طه الحاجرى ط مصر ١٩٦٨ ص ١٣٢ و ١٣٣ .

١١١ - انظر البصائر الثانية ع ٣٢ (١٩ أبريل ١٩٤٨) الافتتاحية بقلم البشير الابراهيمى.

١١٢ - انظر نهضة الأدب العربى المعاصر فى الجزائر د. عبد الملك مرتاض ط الجزائر ١٩٦٩ ص ١٢٨ .

المراجع

أولا - الكتب

١- أحمد أمين:

زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ط بيروت (دار الكتاب العربى) بدون تاريخ.

٢- أحمد ابن ابى الضياف:

«اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان»

ط (تونس) ج ٤: سنة ١٩٦٣، ج ٦: سنة ١٩٦٣ .

٣- أحمد حسن الزيات:

«تاريخ الادب العربى»: ط ١١ - مصر بدون تاريخ .

٤ - أحمد توفيق المدنى:

«حياة كفاح» القسم الثانى ط الجزائر.

٥) أنور الجندى:

«الفكر، والثقافة المعاصرة فى شمال افريقيا»: ط القاهرة ١٩٦٥ .

٦) أحمد عامر: تونس عبر التاريخ ط تونس ١٩٦٠ .

٧- المنجى الشملى:

«خير الدين باشا»: ط تونس ١٩٦٨ .

٨- الطاهر الطناحى:

«مذكرات الأمام محمد عبده»: ط دار الهلال بالقاهرة بدون تاريخ.

٩- البشير الإبراهيمى : (عيون البصائر) ط الجزائر عام ١٩١٠ .

١٠- تشارلز آدمس:

«الإسلام والتجديد فى مصر» ترجمة عباس محمود العقاد. ط مصر بدون تاريخ.

١١- جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده:

«العروة الوثقى» ط مصر ١٩٥٧ :

١٢- جمال الدين الأفغانى:

«الرد على الدهريين» ط ٤ - القاهرة ١٩٤٠ ..

١٣- حنا الفاخورى:

«تاريخ الادب العربى» ط بيروت ١٩٥١ .

١٤- خير الدين التونسى:

« أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك» (المقدمة وتقاريظ المعاصرين) تحقيق الدكتور المنصف الشنوفى ط تونس ١٩٧٢ .

١٥- رشيد الذوادى:

«أدباء تونسيون» ط تونس ١٩٧٢ .

١٦- زين العابدين السنوسى.

«محمد بيرم الخامس» ط تونس ١٩٥٢ .

١٧- شارل أندرى جوليان:

«المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسى» تعريب: محمد مزالى والبشير بن سلامة ط تونس ١٩٧٢ .

١٨) **طه الحاجرى**: (جوانب من الحياة العقلية فى الجزائر) ط مصر ١٩٦٨ .

«جمال الدين الأفغانى» ذكريات وأحاديث.

سلسلة «اقرأ عدد ٦٨ ط دار المعارف بمصر عام ١٩٤٨ .

٢٠- عبدالمنعم حمادة:

«الأستاذ الامام محمد عبده» ط مصر ١٩٤٥ .

٢١ـ عثمان أمين :
«رواد الوعى الإنسانى فى الشرق الإسلامى»
(سلسلة المكتبة الثقافية عدد ٦٤) ط مصر ١٩٦١ .
٢٢ـ عمار الطالبى :
ابن باديس ـ حياته وآثاره» ط الجزائر ١٩٦٨ .
٢٣ـ عبدالملك مرتاض : (نهضة الأدب العربى فى الجزائر) ط الجزائر ٦٩ .
٢٤ ـ عباس محمود العقاد
«محمد عبده ـ سلسلة أعلام العرب ـ نوفمبر ١٩٦٩ .
٢٥ـ كارل بروكلمان :
«تاريخ الشعوب الإسلامية » تعريب أمين فارس ومنير البعلبكى ، ط ٥ بيروت ١٩٦٨ .
٢٦ـ محمد بيرم الخامس :
«صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار» ج ٢ و ٤ ط ١ : القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ ١٨٨٤ م.
٢٧ـ محمود قاسم :
«الأمام عبدالحميد بن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية» ط مصر ١٩٦٧ .
٢٨ـ محمد عمارة:
«ثوار مسلمون» : (سلسلة كتاب الهلال) ط مصر ١٩٧٢ .
٢٩ـ محمد الفاضل ابن عاشور:
«الحركة الأدبية والفكرية فى تونس» ط القاهرة (١٩٥٥ـ١٩٥٦) .
«أركان النهضة الأدبية بتونس» ط تونس ١٩٦١ .
«تراجم الأعلام» ط تونس ١٩٧٠ م

٣٠- محمد باشا المخزومى:
«خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى» ط القاهرة بدون تاريخ.
٣١- محمد الهادى الشريف:
(تاريخ تونس) تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة ط تونس ١٩٨٠ .
ثانيا المجلات:
١- مجلة المنار المصرية سنة ١٩٠٢ .
٢- مجلة خير الدين س ١ عدد ١ سنة الصدور ١٩٠٦ .
٣- مجلة الشهاب الجزائرية.
- ع مايو ١٩٢٩ .
- ع أكتوبر ١٩٣٤ .
- ع فيفرى ١٣٩٣ .
- ع مايو ١٩٣٧ .
- ع (جوان - جويلية) ١٩٣٨ .

٤- مجلة أفريقيا الشمالية س١ ع ٤ (مايو ١٩٤٩)
٥- مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة - ع ١ س ١٩٦٤ .
٦- مجلة (الثقافة) الجزائرية س ١٣ ع٧٥ عم ١٩٨٣
ثالثاً : الصحف:
- الجوائب (صدرت فى اسطانبول) مجموعة عام ١٨٧٦ .
- الرائد التونسى: لعام ١٨٧٨ .
- الاعلام: (جريدة مصرية) بتاريخ.
٢٨ -٣- ١٨٨٦
٦ - ٤ - ١٨٨٦ .

٨ و ١٥ ـ ٧ ـ ١٨٨٦ .

١٤ـ ٧ ـ ١٩٨٧ .

٩ ـ ١٢ ـ ١٨٨٦ .

ـ الوقائع المصرية، ع ١٤٥ بتاريخ ٢١ ديسمبر ١٨٨٩ .

ـ الحاضرة ـ س٣ع ٨١ (١١ فيفرى ١٨٩٠): ترجمة خير الدين.

ـ البصائر:

● س ٤ ع ١٧١ بتاريخ ٢٢ ـ ٦ ـ ١٩٣٩ .

ع ٢٤ بتاريخ ٣ ـ ٥ ـ ١٩٤٨ (السلسلة الجديدة).

ع ١٤ عام ١٩٤٨ .

ع ١٥٠ بتاريخ ١٩٥١ .

ع ٢٢٦ بتاريخ ١٧ ـ ٤ ـ ١٩٥٣ .

البصائر:

رابعاً: نشريات ثقافية:

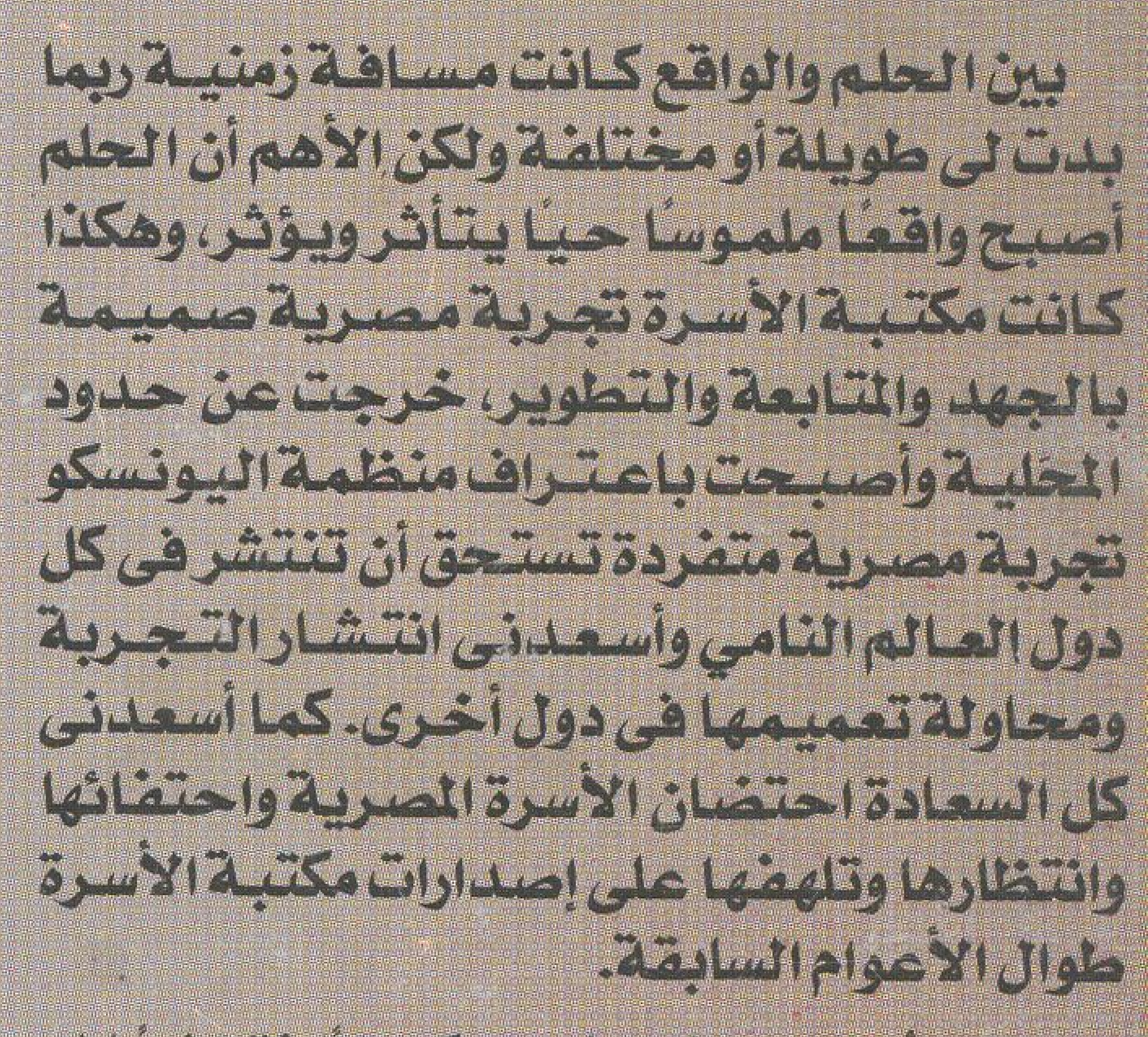
ـ نشرية جمعية الطلبة المسلمين الجزائريين بتونس: (ابن باديس فى ذكراه الخامسة عشر) ـ تونس :١٩٥٥ .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٠٩٨٢ / ٢٠٠٠

I.S.B.N 977-01-6821-1





بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن علي التوالى، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٥٠ قرش